الملامح القصصية في كتاب الإمتاع و المؤانسة

لأبي حيان التوحيدي

دكتورة/ وردة محمدي مكاوي عزب
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

تمهيد :

يُعد كتاب الإمتاع و المؤانسة من أهم آثار أبي حيان إن لم يكن أهمها على الإطلاق ؛ و لتأليف أبي حيان لهذا الكتاب قصة ممتعة ذلك أن أبا الوفاء المهندس كان صديقاً لأبي حيان و للوزير أبي عبد الله العارض- أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان- وزير صمصام الدولة البويهي ، فقرب أبو الوفاء ابا حيان من الوزير و وصله به، و مدحه عنده ، حتى جعل الوزير أبا حيان من سماره ؛ فسامره سبعاً و ثلاثين ليلة كان يحادثه فيها ، و يطرح الوزير عليه أسئلة في مسائل مختلفة فيجيب عنها أبو حيان . ثم طلب أبو الوفاء من أبي حيان أن يقص عليه كل ما دار بينه و بين الوزير من حديث ، و ذكره بنعمته عليه في وصله بالوزير ... فأجاب أبو حيان طلب أبي الوفاء ... و فضل أن يدون ذلك في كتاب يشتمل على كل ما دار بينه و بين الوزير من دقيق و جليل ... فوافق أبو الوفاء على ذلك ... و قد تزيد فيه أبو حيان و نمق الحديث و اخترع أشياء لم تجر في مجلس الوزير و قد قسم أبو حيان كتابه إلى أربعين ليلة فهو أشبه شيء بألف ليلة و ليلة، و لكنها ليست ليالي للهو و الطرب و كيد النساء ، إنما هي ليال للفلاسفة و المفكرين و الأدباء ... فإن كان ألف ليلة و ليلة يصور أبدع تصوير الحياة الشعبية في ملاهيها و فتنها و عشقها ، فكتاب الإمتاع و المؤانسة يصور حياة الأرستقراطيين أرستقراطية عقلية ؛ كيف يبحثون ، و فيم يفكرون ، وكلاهما في شكل قصصي مقسم إلى ليال ، و إن كان حظ الخيال في الإمتاع و المؤانسة أقل من حظه في ألف ليلة و ليلة[1] و الحقيقة أن الباحثين لم يلتفتوا إلى دراسة الفن القصصي في كتاب الإمتاع و المؤانسة لهذا تحاول هذه الدراسة أن تكشف عن بعض الجوانب المطوية في أدب أبي حيان لتؤكد أصالة فن القصة العربية في أدبنا العربي ؛ و لا ريب أن دراسة المقومات

القصصية عند أبى حيان التوحيدى فى كتابه "الإمتاع و المؤانسة" جديرة أن تقف شاهداً على أصالة القصة العربية . و أن تضاف إلى الشواهد الأخرى للفن القصصى العربى التى نتلمسها فى كتب التراث ذات الملامح القصصية مثل المقامات . و رسالة التوابع و الزوابع لابن شهيد الأندلسى . و رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى . و قصة حى بن يقظان لابن طفيل و غير ذلك .

و لا شك أن التأثيرات الغربية واضحة فى تطوير الفن القصصى العربى . و هو تطوير ضرورى و منطقى . ولا يمكن للنظرة العلمية السليمة أن تتجاهله أو تغض من أهميته . على أننا ينبغى أن ننتبه أيضاً إلى التأثيرات العربية الأصيلة التى أنضجت الفن القصصى الحديث . و هى تأثيرات بالغة الأهمية لأنها تتصل بالهوية العربية للقصة الحديثة . و ليست محاولتنا تلك إلا واحدة من المحاولات لتأكيد تلك الهوية .

و سنحاول أن نبرز أهم الملامح القصصية فى كتاب "الإمتاع و المؤانسة" من خلال ما أطلقنا عليه مصطلح اللقطة ثم من خلال ما أطلقنا عليه مصطلح اللوحة .

اللقطة :

تعرض علينا أبو حيان أحياناً ما نستطيع أن نسميه باللقطة و هى عبارة عن مشهد سريع مضغوط يحتوى على بعض العناصر القصصية و من أمثلة هذا اللون تلك اللقطة الطريفة التى أشار فيها إلى أوضاع العامة يقول على لسان الوزير: "حدثنى عما تسمع من العامة فى حديثنا قلت : سمعتُ (بباب الطاق) قوماً يقولون : اجتمع الناس اليوم على الشط . فلما نزل الوزير ليركب المركب صاحوا و ضجوا و ذكروا غلاء القوت و عوز الطعام و تعذر الكسب و غلبة الفقر و تهتك صاحب العيال ، و أنه أجابهم بجواب مر مع قطوب الوجه و إظهار التبرم بالاستغاثة : بعد لم تأكلوا النخالة . فقال : و الله ما قلت هذا ، ولا خطر لى على بال ، ولم أقابل عامة جاهلة ضعيفة جائعة بمثل هذه الكلمة الخشناء ، و هذا يقوله من طرح الشر ، و أحب الفساد و قصد التشنيع علىّ ، و الإيحاش منى ....(٢) .

و هذه اللقطة على صغر حجمها ذات دلالة تاريخية ، و مغزى اجتماعى فهى تصور لنا حدثاً وقع فى بغداد قبل ألف سنة ، و رغم أنها حدث قد يحدث فى أى عصر و فى أى مكان إلا أنها تصور الحياة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية إبان تلك الفترة فى تاريخ الأمة الإسلامية بما تفجر خلالها من أزمات تمثلت فى اشتداد الصراع على السلطة و التكالب على اقتناء الثروة . واللقطة ترسم لنا صورة لظاهرة صاخبة قام بها جمهور من الكادحين الذين فشت فيهم البطالة و ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ؛ فأصبح من العسير عليهم تأمين القوت ؛ و لم تقف الأمور عند هذا الحد فحسب بل طحنتهم أيضاً و طأة الغلاء ؛ و لما بلغت القلوب الحناجر كان لابد من حدوث هذا الانفجار الذى تمثل فى تجمعهم على شاطىء دجلة يرتقبون مرور الوزير حتى إذا ما لمحوه و هو يهم بالعبور صرخوا فى وجهه مستنكرين تلك الأوضاع و ما هم فيه من بؤس و شقاء و حرمان . و الفريد فى تلك اللقطة أن أبا حيان التقطها و اهتم بأمرها ؛ و استطاع بذكاء شديد أن يستغل سؤال الوزير له . فيذكرها على مسامعه منتهزاً فرصة تلك الساعة الثمينة ساعة الصفاء و المؤانسة التى جمعتهما و بلباقة شديدة أشعر الوزير

بالحرج و أظهر تعاليه و صلفه و خرقه الذى تمثل فى جوابه الأحمق المتعجرف للجماهير و بنفس الوقت يريد أبو حيان أن ينتقم لطبقة الفقراء و البؤساء فهو يعاتب صاحب السلطة عتاباً خفياً و يلومه لوماً مستتراً و كأنه يريد الانتصاف لهؤلاء البؤساء المعدمين فى الأرض الذين تعاطف معهم أبو حيان لسوء حاله و فقره و معاناته فهو يعد نفسه واحداً منهم . ولا يهمنا أن يكون ما نُسب للوزير صحيحاً أم مجرد اختلاق و افتراء لكن المهم هو أن الوزير شعر بالإحراج لذا فقد اضطر إلى إنكار تلك الحادثة والاعتراف ببشاعتها مدافعاً عن نفسه بنسبتها إلى أعدائه الذين اعتادوا نسج الشائعات ضده و دأبوا التشنيع عليه . و تلك اللقطة تحتوى على مشهدين متقابلين متعاقبين الأول تلك المظاهرة التى قام بها حشد من المستضعفين فى الأرض و هم يمثلون القاعدة العريضة من الجماهير الكادحة . و الثانى يتجلى فى غطرسة الراعى و تعاليه على الرعية و قذفه لهم بخناجر القول المسموم فى حين كان يجب عليه أن يستمع إلى شكواهم و أن يتلطف معهم و يرفق بهم و يعمل جاهداً على رفع الظلم عنهم . فتلك اللقطة تعد وثيقة تاريخية . و مشهد من المشاهد الحية على حياة الناس و أوضاعهم فى ظل بعض الحكام فى العصور الوسطى فقد كان أبو حيان بارعاً فى تصوير البيئة الاجتماعية و الاقتصادية تصويراً رائعاً واقعياً حياً على إيجازه عندما ذكر غلاء القوت ، عوز الطعام ، تعذر الكسب ، و غلبة الفقر .... ، مما يلقى الضوء على بعض المعضلات الكبرى فى الدولة العباسية حيث أخذت فيها طبقة خاصة من الناس تسيطر على الثروات فى حين أن الغالبية العظمى من الشعب كانت ترزح تحت نير البؤس و الحرمان نتيجة عدم توافر العدالة الاجتماعية . و قد نجح أبو حيان فى رسم شخصية الوزير المتعجرف القاسى الظالم المستخف بآلام الرعية بملامحها الخارجية من تقطيب الوجه ، و إظهار التبرم بالاستغاثة و بملامحها الداخلية من خلال رده على البؤساء ذلك الرد البشع ؛ و هناك أيضاً الشخصية الجماعية لجماهير الشعب البائسة المعدمة الكادحة المحرومة . إذن فتلك اللقطة على صغرها تحتوى على عناصر القصة من سرد و حوار و رسم لبعض ملامح الشخصيات و تصوير للبيئة السياسية و الاقتصاديه

والاجتماعية أما عن مسرح اللقطة أى بيئتها المكانية فهى "باب الطاق" ببغداد على شاطىء دجلة .

ونرى فى كثير من اللقطات أو اللوحات التى يوردها أبو حيان أن هناك مغزى وراءها يرمى إليه و يبغى تحقيقه فليس الهدف منها فقط مجرد الإمتاع و المؤانسة بل الهدف أعمق و الغاية أهم و يجب ألا ننسى دائماً أنه كان فليسوفاً فهو بهذا المعنى صاحب فكر يريد أن يطرحه كما رأينا فى اللقطة السابقة التى يهدف منها أن يلفت صاحب السلطة إلى معاناة الشعب فى محاولة منه للإصلاح ؛ وكما نرى فى تلك اللقطات المتتابعة التى يوردها التوحيدى فى الليلة الأربعين "لحاجة فى نفس يعقوب يريد أن يقضيها" ؛ واللقطة الأولى من هذه اللقطات يروينا أبو حيان على لسان أستاذه أبى سليمان المنطقى الذى كان كثيراً ما يستشهد بأقواله و يروى عنه . يقول "اجتمع رجلان : أحدهما يقول بقول هشام . والآخر يقول بقول الجوالقى . فقال صاحب الجوالقى لصاحب هشام : صف لى ربك الذى تعبده . فوصفه بأنه لا يد له و لا جارحة و لا آلة و لا لسان . فقال الجوالقى : أيسرّك أن يكون لك ولد بهذا الوصف! قال : لا . قال : أما تستحى أن تصف ربك بصفة لا ترضاها لولدك فقال صاحب هشام : إنك قد سمعت ما نقول . صِفْ لى أنت ربك ؛ فقال : إنه جَعْدٌ قطط فى أتم المقامات و أحسن الصور و القوام . فقال صاحب هشام : أيسرك أن تكون لك جارية بهذه الصفة تطؤها ؟! قال : نعم . قال : أفما تستحى من عبادة من تحب مباضعة مثله !! و ذلك لأن من أحب مباضعته فقد أوقع الشهوة عليه[٣]" . واللقطة الثانية تعقبها مباشرة و هى على لسان أبى سليمان أيضاً يقول : قال أُبتلى غلام أعجمى بوجع شديد . فجعل يتأوه و يتلوى و يصيح . فقال له أبوه : يابنى اصبر و احمد الله تعالى . فقال : و لماذا أحمده ! قال لأنه ابتلاك بهذا ؛ فاشتد وجع الغلام و رفع صوته بالتأوه أشد مما كان . فقال له أبوه : و لم اشتد جزعك ! فقال : كنت أظن أن غير الله ابتلانى بهذا فكنت أرجوه أن يعافينى من هذا البلاء و يصرفه عنى . فأما إذ كان هو الذى ابتلانى به فمن أرجو أن يعافينى! فالآن اشتد جزعى . و عظمت مصيبتى[٤]" . واللقطة الثالثة تعقبها مباشرة

يرويها التوحيدي أيضاً على لسان أبي سليمان قال : "وحكى أيضاً أن رجلا من العجم حج و تعلق بأستار الكعبة فطفق يدعو و يقول : يا من خلق السباع الضارية ، و الهوام العادية ، و سلطها على الناس ، و ضربهم بالزمانة و العمى و الفقر و الحاجة ؛ فوثب الناس عليه و سبوه و زجروه و قالوا : ادع الله بأسمائه الحسنى . فأظهر لهم الندامة ، و التقارف فخلوا عنه بعد ما أرادوا الوقيعة به . فرجع و تعلق بأستار الكعبة ، و جعل ينادي : يا من لم يخلق السباع الضارية ، ولا الهوام ، و لا سلطها على الناس ، و لم يضرب الناس بالأوجاع و الأسقام . فوثبوا عليه أيضاً و قالوا له : لا تقل هذا فإن الله خالق كل شيء ؛ فقال : ما أدري كيف أعمل ؟ إن قلت : إن الله خالق كل الأشياء و ثبتم عليَّ . و إن قلت : إن الله لم يخلقها و ثبتم عليَّ . فقالوا : هذا ينبغي أن تعلمه بقلبك و لا تدع الله به (٥)

و بعد أن تركنا لأبي حيان عرض اللقطات السابقة نستطيع القول إن اللقطات الثلاث فيها من الملامح القصصية السرد و الحوار و رسم بعض ملامح الشخصيات بالإضافة إلى ما في اللقطة الأولى من ملمح الوصف للذات الإلهية عند أهل الكلام . و اللقطة الأولى فيها شخصيتان هما : شخصية صاحب الجواليقي ، و صاحب هشام و هما شخصيتان جبلتا على الجدل السفسطائي العقيم الذي لا طائل من ورائه ، و إن أنتج لا ينتج إلا الشؤم و النكد ، و هاتان الشخصيتان تعدان شخصية واحدة في حقيقة الأمر حيث إن نمطهما الفكري غير مختلف فهما من المتكلمين أهل المراء و الجدال الذين لا يستطيعون فهم كنه الذات الإلهية العليا فلا ينزهونها عن تلك الأوصاف في حين أنه "ليس كمثله شيء" . أما اللقطة الثانية ففيها شخصية الأب و ابنه الغلام الأعجمي و الأب رجل مؤمن عاقل مدرك ينصح ابنه بالصبر و حمد الله عند الابتلاء ، أما شخصية الابن فهي شخصية ساذجة بكل ما تحمله كلمة الطفولة من براءة و عدم نضج ، و هي لقطة تثير الضحك نتيجة تلك المفارقة و التناقض بين منطق الرجل المؤمن العاقل الرزين -الأب- و بين منطق الطفل الساذج البسيط -الغلام الأعجمي- و تصرف كل

شخصية من هاتين الشخصيتين مطابق تمام المطابقة لمقتضى حالها . و يعرض علينا أبو حيان تلك اللقطة ساخراً من المتكلمين فهو يرمز بشخصية الأب الحكيم إلى أهل الفلسفة الذين ينتمى التوحيدى إليهم فهم أصحاب فكر عميق لذا فقد فهموا الذات الإلهية على حقيقتها و هذا واضح من نصيحة الأب لابنه . أما شخصية الطفل تلك الشخصية المسطحة البسيطة الساذجة التى لا تتعمق فى الأشياء و هذا واضح من رد فعلها عندما عرفت أن الله هو الذى ابتلاها . فهو يرمز بها إلى المتكلمين أصحاب الفكر المحدود الذين عجزوا عن الغوص فى بواطن الأمور لفهمها على حقيقتها لذا فقد جهلوا الذات الإلهية و فشلوا فى الوصول إلى الحكم البالغة وراء أفعالها كما فعل ذلك الطفل . أما اللقطة الثالثة ففيها شخصية فردية هى شخصية الرجل الأعجمى ؛ و شخصية جماعية تمثل مجموعة من الناس كانت تؤدى المناسك و سمعت دعاءه عن طريق المصادفة ؛ و الرجل الأعجمى شخصية بسيطة ساذجة تجهل آداب الدعاء و لذلك جعله أعجمياً فهو غير عربى قد لا تساعده لغته على التعمق فى أمور الدين و إجادة مناجاة الذات الإلهية و حسن مخاطبة المولى عز و جل ؛ و قد يكون حديث العهد بالإسلام فما زالت بعض الأمور كالمعميات بالنسبة إليه . و هذه الأشياء كلها مبررات مقنعة لسلوك هذه الشخصية و تصرفها الذى يطابق مقتضى حالها ؛ و هى رمز للبسطاء أما الشخصية الجماعية فيرمز بها التوحيدى إلى مجموعة المتكلمين أصحاب الجدل الذين يفكرون بطريقة واحدة فهم فى حقيقة الأمر يعدون شخصية فردية لأن سلوكهم سلوك واحد إزاء الرجل الأعجمى ؛ و لأنهم أهل الجدل العقيم فقد تجادلوا و تشاحنوا و وثبوا عليه و سبوه و أرادوا الوقيعة به يريدون منه أن يفكر بطريقتهم حتف أنفه قاصدين أن يسقطوا فكرهم عليه و لو بالقهر دون مراعاة للفروق الفردية بين البشر . و قد جعلهم أبو حيان يتجادلون فى الحج و فى أثناء الطواف و التعلق بأستار الكعبة و هذا شىء منهى عنه نهياً صريحاً لقوله تعالى : "لا رفث و لا فسوق و لا جدال فى الحج " و هذا التصرف منهم يعد دليلاً على عدم تعمق الإيمان فى قلوبهم لأنهم لم يتجنبوا ما نهى الله عنه و بدلاً من انصرافهم للعبادة و الدعاء شغلوا بالمراء و الخصومة ؛ كما يؤكد جهلهم

الشديد بالدين و شغفهم بالجدال و تعودهم عليه لدرجة أنهم لم يستطيعوا البعد عنه حتى في ذلك الموقف العظيم و يصف التوحيدي هؤلاء المتكلمين في تلك اللقطة بأنهم يتجادلون ثم يدللون ثم يختلفون ثم يرجعون إلى القول بأن الأدلة متكافئة و هذا ما جعل الرجل الأعجمي المسكين يحار و لا يستطيع فهم ما يريدون فقد دعا أول مرة لم يعجبهم دعاءه و أثبتوا خطأه ثم دعا مرة ثانية بعكس مادعا به أولاً فلم يعجبهم أيضاً و أثبتوا خطأه .

و لعلنا الآن قد وصلنا إلى المغزى الذي من أجله عرض علينا أبو حيان تلك اللقطات المتتابعة و هو ضيقه ذرعاً بالمتكلمين الذين أكثروا من الجدل حول العدل و التوحيد حتى أصبحت مشكلة الذات الإلهية وصفاتها من أخطر المشاكل و أعظمها حيث شغلت أذهان العامة و الخاصة على السواء في تلك الفترة ؛ و من خلال اللقطة الأولى يتضح لنا أن التوحيدي كان يؤمن باستحالة وصف الذات الإلهية. إن أبا حيان لم يستطع أبداً أن يكون رحب الصدر بالمتكلمين و سر ذلك راجع إلى علاقته أولاً بأهل الحديث ، و ميله إلى البساطة التي تبلغ بصاحبها منزلة الاطمئنان ، ثم إلى علاقته بعد ذلك بالفلسفة . وقد عادى أبو حيان الكلام مشتركاً مع رأي أساتذته المتفلسفين الذين بينوا له أن الجدل الكلامي ليس إلا شغباً و سفسطة ، و أن السداد إنما يلحق بالفلسفة و القائمين عليها . و شيء آخر لابد أن نتنبه له وهو : أن أبا حيان ينتسب إلى مدرسة أبي سليمان المنطقي التي أنشأها يحيى بن عدي ، و هي مدرسة الفلسفة الإلهية التي كانت ترى الفصل بين الفلسفة و الدين ، و لا ترضى الجمع بينهما و تعتقد أن لكل مجاله الخاص في النفس الإنسانية[٦] . إذن مغزى أبي حيان واضح من خلال اللقطات السابقة و هو مهاجمة المتكلمين أهل الجدل و السفسطة و إبداء رأيه فيهم لذا فقد بدأ اللقطة الأولى بقول أبي سليمان : "و لمصلحة عامة نُهي عن المراء و الجدل في الدين على عادة المتكلمين الذين يزعمون أنهم ينصرون الدين ، و هم في غاية العداوة للإسلام و المسلمين ، و أبعد الناس من الطمأنينة و اليقين" . و ختمها بقوله "هذا من

شؤم الكلام و نكد الجدل . فلو كان هناك دين لكان لا يدور هذا فى وهم و لا ينطق به لسان [٧] " . و علق على اللقطة الثالثة بقول أبى سليمان : "و هذا أيضاً من شؤم الكلام و شبه المتكلمين الذين يقولون : لا يجوز أن يُعتقد شيء بالتقليد . و لابد من دليل . ثم يدللون و يختلفون . ثم يرجعون إلى القول بأن الأدلة متكافئة [٨] " .

و هناك أيضاً لونٍ من اللقطات الطريفة أوردها التوحيدى فى الليالى التى تحدث فيها عن أمر الطعام و المطعمين و نوادر البخلاء و الطفيليين ؛ و لم يكن من المستغرب على رجل مثل التوحيدى عانى مرارة الفقر و ويلات الجوع أن يقبل على تلك النوادر و أن يرحب بالاستماع إلى أحاديث الطعام و المعدة [٩] و هو يعلل إقباله على الكتابة فى هذا الباب بعد كل ما كتبه فيه الجاحظ فيقول : "إن الجاحظ قد أتى على جمهرة هذا الباب إلا ما شذ عنه مما لم يقع إليه فإن العالم - و إن كان بارعاً- ليس يجوز أن يظن به أنه قد أحاط بكل باب . أو بالباب الواحد إلى آخره . على أنه قد حدث منذ عهد الجاحظ إلى وقتنا هذا أمور و أمور . و هنات و هنات . و غرائب و عجائب .... [١٠] " . و رغم أن أبا حيان عُرف بانتمائه إلى الجاحظ و تأثره به إلا أن هذا لا يعنى فقدان الإبتكار [١١] . و من أروع اللقطات التى أوردها أبو حيان فى تلك الليالى هذه اللقطة التى جاءت على لسان أبى الحسن قال :"كانت لى ابنة تجلس معى على المائدة فتبرز كفاً كأنها طلعة . فى ذراع كأنها جمارة . فلا تقع عينها على أكلة نفيسة إلا خصتنى بها . فزوجتها . و صار يجلس على المائدة ابن لى . فيبرز لى كفاً كأنها كرنافة فى ذراع كأنها كربة . فوالله إن تسبق عينى إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها [١٢] " .

و هذه اللقطة يظهر لنا فيها من سمات الفن القصصى السرد و رسم بعض ملامح الشخصيات و التخييل ؛ فقد رسم لنا أبو حيان شخصيتين متناقضتين و هذا واضح من خلال تصرف كل منهما مستعيناً بعنصر الخيال و التصوير ؛ شخصية الابنة البارة بأبيها المحبة له التى تؤثره على نفسها . أما الشخصية الأخرى فهى على نقيضها و هى شخصية الابن الجشع النشع المحب للطعام . بل المحب لنفسه فهى تتسم بالأنانية

والطمع و إيثار الذات على الآخرين حتى لو كان الأب فقد انعدم فيها البعد الإنسانى واختفى فلم يعد له وجود أمام شراهتها و حبها للطعام . وقد استعان أبو حيان بالخيال على تجسيد الشخصية . فكف البنت العطوفة المعطاءة التى تقدم لأبيها الأكل النفيس و تخصه به كأنه ثمر النخل فى ذراع كأنه قلب النخلة الذى يخرج منه الثمر و السعف و تموت بقطعه [١٣] . أما الابن الشره الأنانى فكفه فى خشونتها و غلظتها و جفافها و عدم عطائها كأنه أصل السعف الذى يبقى فى جذع النخلة فى ذراع طويل كأنه السعف نفسه . لذا فهو يستطيع بسهولة و يسر الوصول بسرعة إلى أى لون من ألوان الطعام على المائدة مهما كان بعيداً . وقد نجح السرد نجاحاً باهراً و خاصة حين جسد شخصية الابن "فوالله إن تسبق عينى إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها" حيث عبر عن سرعة يد الابن التى فاقت لمح بصر أبيه أروع تعبير .

و من اللقطات البارعة أيضاً التى احتوت على بعض عناصر الفن القصصى تلك اللقطة التى أوردها التوحيدى فى الليالى نفسها التى تحدث فيها عن أمر الطعام و المطعمين و نوادر البخلاء و هى تذكرنا بطريقة الجاحظ التى تغلب عليها روح المرح و خاصة فى كتابه "البخلاء" . يقول أبو حيان : "ضم عثمان بن رواح السفر و رفيقاً له . فقال له الرفيق : امض إلى السوق فاشترلنا لحماً قال : والله ما أقدر . قال : فمضى الرفيق و اشترى اللحم ثم قال لعثمان : قم الآن فاطبخ القدر . قال : والله ما أقدر . فطبخها الرفيق . ثم قال : قم الآن فاثرد . قال : والله إنى لأعجز عن ذلك . فثرد الرفيق . ثم قال : قم الآن فكل . فقال : والله لقد استحييت من كثرة خلافى عليك . ولولا ذلك ما فعلت [١٤]" . فاللقطة فيها الحدث و الحوار و الخاتمة الطريفة التى تحقق الانبهار فيها التركيز الرائع على رسم شخصية عثمان ذلك الرجل الكسول البخيل حتى بالمجهود و الذى لا يظهر إلا حين ينثر الحب معللاً بذكاء و خفة روح سبب موقفه الإيجابى حين دعى لتناول الطعام و هو استحياؤه من موقفه السلبى ثلاث مرات حين دعى للبذل و هى مفارقة طريفة تثير الضحك .

و من اللقطات الطريفة أيضاً في هذا الباب تلك اللقطة التي أوردها أبو حيان على لسان ابن أسادة: " قال : كان عندنا -يعني بأصفهان- رجل أعمى يطوف و يسأل . فأعطاه مرة إنسان رغيفاً . فدعا له و قال : أحسن الله إليك ، و بارك عليك ، و جزاك خيرا ، و رد غربتك . فقال له الرجل : و لما ذكرت الغربة [في دعائك] و ما علمك بالغربة؟] فقال لي ها هنا عشرون سنة ما ناولني أحد رغيفاً صحيحاً "[١٥] . و الملامح القصصية واضحة في تلك اللقطة من سرد و حوار و رسم لبعض ملامح الشخصية و خاتمة طريفة تثير الضحك ، و قد أبدع أبو حيان في الحوار و في رسم شخصية السائل الذكي الذي استنتج بذكائه الحاد استنتاجاً ثبتت صحته و هو أن ذلك الرجل الذي أعطاه الرغيف كاملاً رجل غريب برغم ضآلة العطاء ؛ فهو مجرد رغيف كامل و لم يقل لحماً أو ثريداً أو .... و لكنه بالقياس إلى ضآلة عطاء أهل تلك المدينة على مدى عشرين عاماً يعد كرماً لم يألفه السائل لذا فقد دعا للرجل أربع دعوات متتالية و هذا هو الإبداع في الحوار مما يؤكد فرحته البالغة بالرغيف و لا شك أنه يجسم شخصية أهل تلك البلدة ومدى بخلهم و حرصهم و شحهم .

و هناك بعض اللقطات ليس فيها من الملامح القصصية سوى السرد و تصوير بعض ملامح الشخصيات أو وصف البيئة سواء أكانت بيئة فكرية أم عقلية أم اجتماعية و نلحظ هذا اللون بخاصة في الليلة الثامنة و العشرين التي تحدث فيها عن طرب بعض مستمعي الغناء ، و أسماء المغنين و المغنيات و الشعر الذي تغنوا به ؛ و منها تلك اللقطة التي يصف فيها طرب الجراحي أبي الحسن عند سماعه لغناء شعلة و هو في هذه اللقطة يصف شخصية أبي الحسن وصفاً خارجياً ثم ينتقل لوصفها وصفاً داخلياً يقول : " و لا طرب الجراحي أبي الحسن مع قضائه في الكرخ و رداءة المحشى ، و كمّيه المقدرين و وجنتيه المتخلجتين ، و كلامه الفخم ، و إطراقه الدائم ؛ فإنه يغمز بالحاجب إذا رأى مرطاً ، و أمّل أن يقبل خداً و قرطاً ؛ على غناء شعلة :

لابد للمشتاق من ذكر الوطن *** و اليأس و السلوة من بعد الحزن

وقيامته تقوم إذا سمعها ترجع فى لحنها :

لو أن ما تبتليني الحادثات به *** يلقى على الماء لم يشرب من الكدر

فهناك ترى شيبة قد ابتلت بالدموع ، وفؤادا قد نزا إلى اللهاة ، مع أسف قد ثقب القلب ، وأوهن الروح ، وجاب الصخر ، وأذاب الحديد ، وهناك ترى والله أحداق الحاضرين باهتة ، ودموعهم متحدرة ، وشهيقهم قد علا رحمة له ، ورقة عليه ، ومساعدة لحاله ، وهذه صورة إذا استولت على أهل مجلس وجدت لها عدوى لا تُملك ، وغاية لا تُدرك ، لأنه قلما يخلو إنسان من صبوة أو صبابة ، أو حسرة على فائت ، أو فكر فى متمنى ، أو خوف من قطيعة ، أو رجاء لمنتظر ، أو حزن على حال ، وهذه أحوال معروفة ، والناس منها على جديلة معهودة (١١) ". ولم يكتف أبو حيان فى تلك اللقطة بوصف شخصية فردية خارجياً وداخلياً وتصوير رد فعلها وانفعالاتها تجاه سماع غناء الجارية بل وصف أيضاً الشخصية الجماعية وهى من حضر معه من المستمعين ورد فعلهم فى أثناء الغناء تجاه انفعالات أبى الحسن وتأثرهم لحاله ويبدو أبو حيان فى تلك اللقطة محللاً نفسياً بارعاً إذ حلل عدوى التأثر التى تسيطر عادة على تلك المجالس نتيجة لطبيعة النفس البشرية وما تكن فى أعماقها من مشاعر دفينة ورغبات مكبوتة تكاد تكون واحدة ولذا فقد حدث التجاوب وغمرت الجميع تلك الانفعالات الواحدة التى استولت على أهل المجلس .

ونجد أن أبا حيان التوحيدى فى تلك اللقطات يصف أحياناً شخصية السامع وانفعالاتها إزاء سماعها الطرب وأحياناً شخصية المغنى وهذا ما فعله عند حديثه عن طرب أستاذه أبى سليمان المنطقى عند سماعه غناء الصبى الموصلى فقد اكتفى بالإسهاب فى وصف شخصية الغلام وبدأها بالوصف الخارجى ثم وصف ما بداخلها من رغبات وإنه بمثل هذه الصورة الخارجية والداخلية قادر على التأثير وفتنة السامعين . يقول : "... ولا طرب أبى سليمان المنطقى إذا سمع غناء هذا الصبى الموصلى العربى النابغ الذى قد فتن الناس وملأ الدنيا عيارة وخسارة ، وافتضح به

أصحاب النسك والوقار، وأصناف الناس من الصغار والكبار، بوجهه الحسن، وتغرد المبتسم، وحديثه الساحر، وطرفه الفاتر، وقده المديد، ولفظه الحلو، ودله الخلوب، وتمنعه المطمع، وإطماعه المنع وتشكيكه في الوصل والهجر، وخلطه الإباء بالإجابة، ووقوفه بين لا ونعم، إن صرَّحت له كنى، وإن كنيت له صرَّح ... ؛ فحاله حالات، وهدايته ضلالات، وهو فتنة الحاضر والبادي ...[١٧]" وربما كان اكتفاؤه برسم شخصية الغلام وعدم تعرضه لتصوير رد فعل أبي سليمان وانفعالاته عند سماعه للصبي الموصلي راجعاً لاحترامه الشديد لشخصية أستاذه فهو لا يريد أن يرسمها رسماً يخرجها عن وقارها واكتفى بالإشارة إلى طربها لحظة إنصاتها للغلام. وفي بعض الأحيان الأخرى نجد أبا حيان في تلك اللقطات الخاصة بالغناء والمغنين والمغنيات يكون أكثر ميلاً إلى الوصف، واستقراء وضع الشخص وردود أفعاله عندما يستميله الطرب؛ ومنها تلك اللقطة التي يصف فيها ابن فهم الصوفي في أثناء استماعه إلى جارية ابن المغني واسمها "نهاية" وهي تستودع الله في بغداد فيقول: "فإنه إذا سمع هذا منها ضرب بنفسه في الأرض، وتمرغ في التراب وهاج وأزبد، وتعفر شعره؛ وهات من رجالك من يضبطه ويمسكه، ومن يجسر على الدنو منه، فإنه يعض بنابه، ويخمش بظفره، ويركل برجله ويخرق المرقعة قطعة قطعة، ويلطم وجهه ألف لطمة [في ساعة]، ويخرج في العباءة كأنه عبد الرازق المجنون صاحب الكيل في جيرانك بباب الطاق[١٨]". إنه يصف انفعالات الشخصية الداخلية إثر تأثرها بالطرب، وهذه الانفعالات التي انعكست وطفت على السطح الخارجي متمثلة في حركات تلك الشخصية ترجمة لما يحدث في أعماقها لحظة الطرب، وتعبير عن رد فعلها إزاء سماعها لغناء الجارية فقد خرجت الشخصية عن وعيها لذا أخذت تتصرف تلك التصرفات التي لا تصدر إلا عن مجنون ذهب عقله فهو لا يدري ما يفعل. والملاحظ هنا أن التوحيدي يخاطب معارفه "جيرانك بباب الطاق" فهو على معرفة تامة بالسكان وأحوالهم ومجالسهم ملماً إلماماً تاماً بأحوال بغداد وبأصناف الناس ورغباتهم من متصوفة ونساك وخلعاء ملمحاً إلى ظاهرة الشذوذ الجنسي تلك الآفة المزرية التي

شاعت فى بغداد . وغيرها من مدن العراق و خاصة فى وصفه لأحوال المستمعين ووصفه لحركات المغنين و أحاديثهم و ملابسهم حيث كانوا يتزيون بزى النساء .إذن نستطيع القول إن هذه اللقطات الخاصة بالطرب التى وردت فى الليلة الثامنة والعشرين فيها من الملامح القصصية إضافة لعنصر السرد ووصف الشخصية و وصف البيئة سواء أكانت بيئة فكرية أو اجتماعية كما رأينا و كما سنرى فى هذه اللقطة التى وصف فيها "طرب أبى طاهر بن المقنعى المعدّل على علوان غلام ابن عرس فإنه إذا حضر و ألقى إزاره ، وحل أزراره ، وقال لأهل المجلس : اقترحوا واستفتحوا فإنى ولدكم بل عبدكم لأخدمكم بغنائى ، ... وأساعدكم على رخصى وغلائى ؛ من أرادنى مرة أردته مرات . ومن أحبنى رياء أحببته إخلاصاً . لم أبخل عليكم بحسنى وظرفى ، ولم أنفس بهم عليكم ، وإنما خلقت لكم ..... فلا يبقى من الجماعة أحد إلا وينبض عرقه ، ويهش فؤاده، ويذكو طعمه ، ويفكه قلبه ، ويتحرك ساكنه ، ويتدغدغ روحه ، ويومئ إليه بقبلته ، ويغمزه بطرفه ، ويخصه بتحية ، ويعده بعطية ..... فيرى ابن المقنعى وقد طار فى الجو ، وحلق فى السماك ، ولقط بأنامله النجوم ؛ وأقبل على الجماعة يفرح الهشاشة ، ومرح البشاشة ، فيقول كيف ترون اختيارى وأين فراستى من فراسة غيرى ، أبى الله إلا ما يزيننى ، ولا يشينني ، ويزيد فى جمالى ، ولا ينقص من حالى ...؛ هات - ياغلام ذلك الثوب الدبيقى وذلك البرد الشطوى ، وذلك الفروج الرومى ، وتلك السكة المطيبة ، والبخور المدخر فى الحقة ، وهات الدينار الذى فيه مائة مثقال أهداه لنا أمس أبو العلاء الصيرفى فإنه يكفيه لنفقة أسبوع ؛ ما أحسن سكته ، وأحلى نقشه ! ما رأيت فى حسن استدارته شبيهاً ، وعجل لنا ياغلام ما أدرك عند الطباخ ؛ من الدجاج والفراخ ؛ والبوارد والجوزيات وتزاين المائدة؛ وصل ذلك بشراء أقراط وجبن وزيتون من عند كبل البقال فى الكرخ ، وقطائف حبش ، وفالوذج عمر ، وفقّاع زريق ، ومخلط خراسان من عند أبى زنبور ، ولو كنا نشرب لقلنا : وشراب صريفين من عند ابن سورين .....[١٩] " فقد بدأ اللقطة بوصف محاسن الغلام ومشاعره مستغيضا فى سرد مايقوله وما يفعله ويظهر هنا فى تلك اللقطة بالإضافة إلى ما ذكرناه من ملامح

قصصية ملمح الحوار ماثلاً فى حديث الفتى للجمهور وهو حوار من طرف واحد ثم ينتقل أبو حيان لوصف شخصية المستمعين لهذا الغلام ورد فعلها وتصوير انفعالاتها بعد سماعه ؛ ثم ينتقل لوصف شخصية أبى الطاهر المقنعى ومدى تأثرها بسماع الفتى مستعينا بعنصر التخييل [طار فى الجو ، حلق فى السماك ، لقط بأنامله النجوم] ليعبر عن شدة فرحته بغناء علوان ثم يعود للحوار ذى الطرف الواحد الماثل فى حديث أبى طاهر لأهل المجلس ؛ ذلك الحديث الذى صور البيئة الاجتماعية وعبر عنها أصدق تعبير حيث وصف التوحيدى على لسان أبى طاهر عادات زمنه وتقاليد المغنين والسامعين وما يدور فى مثل تلك المجالس ، وأنواع الملابس والثياب وأسماءها ، والبخور والعطور وروائحها ، وألوان الطعام والشراب وتزايين موائدها ، والعملة وجمال شكليا و روعة صناعتها لدرجة أنه ذكر اسم الصيرفى الذى يسك الدنانير ؛ وذكر من أسماء الباعة الكثير وهكذا ... نلحظ فى تلك اللقطات التى أوردها التوحيدى والخاصة بالحديث عن الغناء أنها مليئة بالصور وحركة الشخوص وتقلبات الحال وأوضاع الحياة الجنسية والاجتماعية وغيرها فى تلك الفترة الزمنية .

ويبدو أن أبا حيان كما لاحظنا كان مولعاً برسم رد فعل الشخصية وانفعالاتها ففى هذه اللقطة التى يومئ فيها لملمح من ملامح شخصية الصاحب بن عباد الذى كان يبغضه التوحيدى يصور رد فعله تجاه كلمات المديح والإطراء التى كان يكيلها له من حوله من المنافقين الذين يكثرون حول أصحاب السلطة طمعاً فى نيل الرضا والعطاء وهم يبالغون فى امتداحه قائلين :"قد استدرك مولانا على الخليل فى العروض ، وعلى أبى عمرو بن العلاء فى اللغة ، وعلى أبى يوسف فى القضاء ..... فتراه عند هذا الهذر وأشباهه يتلوى ويتبسم ، ويطير فرحاً ويتقسم ويقول : ولا كذا ؛ شرة السبق لهم ، وقصرنا أن نلحقهم ، أو نقفو أثرهم ونشق غبارهم أو نرد غمارهم . وهو فى كل ذلك يتشاكى ويتحايل ، ويلوى شدقه ، ويبتلع ريقه ، ويرد كالآخذ ، ويأخذ كالمتمنع ، ويغضب فى عرض الرضا ، ويرضى فى لبوس الغضب ، ويتهالك ويتمالك ، و يتقابل و يتمايل ،

ويحاكى المومسات . ويخرج فى أصحاب السماجات ، ومع هذا كله يظن أن هذا خاف على نقاد الأخلاق وجهابذة الأحوال .... [٢٠] " ولا شك أن أبا حيان قد برع فى تصوير رد فعل الصاحب بعد سماعه لهذا الثناء الكاذب فهو يأتى بحركات حمقاوات تدل على التيه والخيلاء ، والفرح بما يسمعه من هذا الهذر والهراء وهو يقول كلمات يظهر فيها لهؤلاء المنافقين رغبته فى أن يقتصدوا فى مديحه ولكن باطنها هو الحث على الإكثار منه ؛ ويظهر التواضع والاعتراف بأفضلية هؤلاء العلماء وسبقهم ولكنه تواضع مزيف فهو ممثل بارع إلا على نقاد الأخلاق وجهابذة الأحوال ..... الذين يكتشفون حقيقته بكل سهولة ويسر برغم أن غباءه يجعله متصوراً أن هذا خاف عليهم . أما حركاته البهلوانية التى تشبه حركات المومسات فقد عمد إليها أبو حيان عمداً لكى يقدمه إلينا فى صورة هزلية ساخرة .

ثانياً : اللوحات القصصية :

نقصد بمصطلح اللوحات القصصية تلك القصص القصيرة التى تحتوى كل لوحة منها على ملامح القصة بصورة أوفر من اللقطة علاوة على وجود قاسم مشترك يربط هذه اللوحات فى الليلة الواحدة كالحديث عن الطعام والمطعمين ونوادر البخلاء والطفيليين . وكتلك اللوحات التى وردت فى الليلة التى تحدث فيها عن أمر الاتفاق وهو الأمر الذى يبدو من غير جنان ، والعارض الذى يبرز من غير توهم . وقد اخترنا من بين اللوحات الخاصة بالحديث عن الطعام والمطعمين ..... تلك اللوحة التى يحكى لنا فيها التوحيدى قصة ذلك الرجل الذى عشق جارية رومية ، واتخذ هذا العشق وسيلة لابتزازها [٢١] وأول ملمح من الملامح القصصية توافر فيها هو عنصر السرد أو الحدث " وعشق رجل جارية رومية كانت لقوم ذوى يسار . فكتب إليها يوماً : جُعِلْتُ فداك ، عندى اليوم أصحابى ، وقد اشتهيت سكباجة بقرية فأحب أن توجهى إلينا بما يعمنا ويكفينا منها ..... . فلما وصلت الرقعة وجهت إليه بما طلب ، ثم كتب إليها يوماً آخر: فدتك نفسى ، إخوانى مجتمعون عندى ، وقد اشتهيت قلية جزورية فوجهى بها إلىّ وما يكفينا من النبيذ والنقل ..... " فالمقدمة تروى عشق الرجل للجارية التى تعمل

لدى قوم ذوى يسار ثم ينمو الحدث شيئاً فشيئاً . فالعاشق يطلب منها طعاماً له ولأصحابه فتلبى طلبه . ثم يعود مرة أخرى ويطلب فتلبى طلبه . ثم يشتد الحدث فيصل إلى قمته حين طلب للمرة الثالثة " قد اشتهيت أنا وأصحابى رءوساً سماناً . فأحب أن توجهى إلينا بها يكفينا . ومن النبيذ بما يروينا " ثم تأتى الخاتمة بعد أن تأزم الموقف " فكتبت الجارية عند ذلك : إنى رأيت الحب يكون فى القلب . وحبك هذا ما تجاوز المعدة . "

وهى خاتمة فنية إذ نلمح فيها لمحة فنية حيث كتبت أسفل الرقعة :

عذيرى من حبيب جا ءنا فى زمن الشـــدة

وكان الحب فى القلب فصار الحب فى المعدة

ومع توافر عنصر السرد هناك أيضاً الحوار وهو هنا ليس شفوياً بل هو حوار كتابى عن طريق المراسلة يدور بين العاشق المزيف وبين الجارية التى يفترض أنها محبوبته . ومن خلال هذا الحوار تكشف الأبعاد النفسية والعقلية لكل شخصية . وهناك شخصية ثالثة جماعية هى أصحاب العاشق المزيف ولكنها هامشية اتخذها الرجل وسيلة لتحقيق مآربه فهو رجل جشع نهم محتال مخادع صاحب مشاعر مزيفة تجاه الجارية يحتال ليستغلها فى إرسال الطعام له تحت شعار الحب . وهو رجل مادى كل شىء عنده يقاس بالمادة " إخوانى مجتمعون عندى . وقد اشتهيت قلية جزورية فوجهى بها إلى وما يكفينا من النبيذ والنقل . ليعرفوا منزلتى عندك " فكأن منزلته عندها تقاس بما تقدمه له من عطاء مادى . أما الجارية فهى ذكية استطاعت بذكائها أن ترفع قناع الحب الزائف وتظهره عارياً فحبه ليس حباً لها بل هو حب فى الحقيقة لمعدته . ورغم أن الجارية كانت محبة لهذا الرجل بدليل استجابتها لمطالبه مرتين إلا أنها عقلانية لم تعم عاطفتها بصيرتها وتجعلها تنصاع لذلك الرجل المستغل وتبدو الجارية شخصية مثقفة فيما ورد على لسانها من شعر . ويستغل أبو حيان اللغة ليعمق إحساسنا بالشخصية فيخرج من لغة التقرير إلى اللغة الدعائية كصورة أخرى من صور الحوار التى يبدأ بها الرجل كل طلب من الثلاثة وهى على التوالى " جعلت فداك "

"فدتك نفسى" "جعلت فداك" فهو ينصب شراك احتياله بهذا الدعاء المعسول أما عن عنصر الواقعية فيظل مرهوناً بما عرضته القصة من أنماط للمأكل "سكباجة بقرية" "قلية جزورية" "رءوساً سماناً" "نقل"، والمشرب "نبيذ" والأوانى "دستجة" كما تتجلى تلك الواقعية فى تعريته لذلك النمط البشرى المحتال الذى يعيش على أرض الواقع. ونخلص نلمح فى تلك القصة أو بعبارة أدق شبه الأقصوصة خيطاً رفيعاً من العلاقة بينها وبين فن المقامة التى ابتدعها بديع الزمان الهمذانى الذى ينتمى هو وأبوحيان التوحيدى لعصر واحد هو القرن الرابع فقد ولد التوحيدى نحو عام ٣١٠ هـ على وجه التقريب[٢٢] أما بديع الزمان فقد ولد عام ٣٥٨ هـ[٢٣] فتلك اللوحة جعل فيها التوحيدى البطل يستخدم الحيلة والذكاء والدهاء للحصول على الطعام كما هو الحال فى معظم المقامات كما أنها تكشف جوانب من الحياة الاجتماعية فى القرن الرابع الهجرى فهى توضح وجود الطبقية فى المجتمع فهناك ذوو اليسار وأصحاب الجوارى وهناك الفقراء أمثال العاشق المزيف الذى يحتال للوصول إلى الطعام. كما نلمح فيها روح الفكاهة والدعابة الماثلة فى الشعر الذى جاء فى الخاتمة علاوة على ما فيه من تضمين. ونلحظ أيضاً استخدام التوحيدى للسجع [فأحب أن توجبى إلينا بما يكفينا، ومن النبيذ بما يروينا] وتعدد أساليب الصياغة عنده للتشويق وجذب المستمع. وكذلك الهدف من المقامة فى المقام الأول جذب الجمهور والسيطرة عليه وإبهاره. فربما كانت هذه اللوحة وأشباهها البذرة الأولى لنشأة المقامة.

أما عن اللوحات التى تتعلق بالصادفة فد عرض علينا التوحيدى فى الليلة السابعة والعشرين أكثر من لوحة يجمعها قاسم مشترك هو هذا الأمر. واللوحة الأولى[٢٤] يبدؤها أبو حيان بمقدمة "حكى لنا أبو سليمان فى هذه الأيام أن ديودسيوس ملك يونان كتب إلى كنتس الشاعر أن يروده بما عنده من كتب فلسفية. فجمع ماله فى عيبة ضخمة وارتحل قاصداً نحوه" ثم يتصاعد الحدث وينمو فنصل إلى العقدة "فلقى فى تلك البادية قوماً من قطاع الطريق. فطمعوا فى ماله وهموا بقتله

ويتأزم الموقف " فتحير ونظر يميناً وشمالاً يلتمس معيناً فلم يجد " ويشتد الأمر حرجاً وتأزماً " فرفع رأسه إلى السماء . فرأى كراكى تطير فى الجو محلقة . فصاح : أيتها الكراكى الطائرة . قد أعجزنى المعين والناصر . فكونى الطالبة بدمى . والآخذة بثأرى

وبعد هذا التأزم ينفرج الحدث بقتل كنتس ثم تأتى الخاتمة " فلما اتصل الحديث بأهل مدينته حزنوا وأعظموا ذلك . وتبعوا أثر قاتله واجتهدوا فلم يُغنوا شيئاً ولم يقفوا على شىء ؛ وحضر اليونانيون ؛ وأهل مدينته إلى هيكلهم لقراءة التسابيح والمذاكرة بالحكمة والعظة . وحضر الناس من كل قطر وأوب . وجاء القتلة واختلطوا بالجمع . وجلسوا عند بعض أساطين الهيكل ؛ فهم على ذلك إذ همت بهم كراكى تتناغى وتصيح . فرفع اللصوص أعينهم ووجوههم إلى الهواء ينظرون ما فيه فإذا كراكى تصيح وتطير . وتسد الجو . فتضاحكوا . وقال بعضهم لبعض : هؤلاء طالبو دم كنتس الجاهل - على طريق الاستهزاء - فسمع كلامهم بعض من كان قريباً منهم فأخبر السلطان فأخذهم وشدد عليهم . وطالبهم فأقروا قتله . فقتلهم ؛ فكانت الكراكى المطالبة بدمه ..... "

وقد ظهر بجانب عنصر السرد فى تلك اللوحة عنصر الحوار ؛ فهناك حوار بين الشاعر واللصوص . وبين الشاعر والكراكى . ثم فيما بين اللصوص بعضهم البعض . وقد تعانقت لغة السرد بلغة الحوار فنما الحدث وتصاعد كما رأينا بصورة سريعة ؛ وقد أبرز التوحيدى بعض ملامح الشخصيات منها شخصية الشاعر المسالم الذى رحل بمفرده بلا حرس ولا رفيق . إلى جانب أنه شخصية محبوبة كما كشفت الأحداث يتمتع بشعبية هائلة . وأيضاً شخصية قطاع الطريق المعروفة بالخسة فالغاية عندهم تبرر الوسيلة حتى لوكانت وسيلتهم للحصول على المال هى القتل على ما فيه من وحشية وإجرام . أما شخصية أهل المدينة أى الشعب اليونانى فهو شعب مثقف صاحب حضارة يعشق الشعر ويعرف للشعراء قدرهم فقد حسد التوحيدى مدى حبهم للشاعر عندما صور مدى حزنهم حين وصلهم النبأ أما السلطان الذى أصر على الأخذ بثأر الشاعر كنتس فهو رجل محب للشاعر وللشعر وللعلم وللفلسفة حريص على تطبيق العدالة والانتقام من

اللصوص وللقصة أكثر من بيئة مكانية . فمسرح الأحداث أولاً كان البادية ثم انتقل بنا إلى المدينة ثم إلى الهيكل . ثم انتقلنا إلى ديوان السلطان أما عن الزمان فهو الماضى القديم زمن حكم ثيودسيوس ووسط هذه العناصر القصصية المتداخلة بين أبطال وأحداث ولغة حوار وسرد يطفو على السطح الحس التاريخى لدى أبى حيان التوحيدى حيث يرسم بريشته لوحة متعددة المناظر تعيد إلى أذهاننا صورة الماضى البعيد لبلاد اليونان بشعرها وفلسفتها و حكمتها ومعتقداتها وتجمع اليونانيين بهيكلهم لقراءة التسابيح والمذاكرة بالحكمة والعظة . بالإضافة إلى عنصر التخييل وهو عنصر مهم للغاية الذى يتضح فى مخاطبة الشاعر للكراكى وهنا تتراءى لنا صورة ابن المقفع الذى أنطق الطير والحيوان واتخذهم رموزاً ؛ وبعد أن نحلق بخيالنا مع الشاعر كنتس وهويخاطب الكراكى نهبط لأرض الواقع فتتجلى لنا الواقعية من خلال تصوير أبى حيان للمح من تاريخ اليونان كما تظهر الواقعية فى غلبة اللغة التقريرية التى تتفق مع أسلوب القص لمزيد من البيان والإيضاح وفيما عدا تلك الأساليب : أسلوب النداء ، " فصاح : أيتها الكراكى الطائرة ، قد أعجزتنى ...." وأسلوب الأمر " فكونى الطالبة بدمى ، والآخذة بثأرى ...." التى توضح سوء حال الشاعر و عجزه وضعفه تظل لغة أبى حيان تقريرية على مافيها من محسنات نادرة كالسجع " فرفع رأسه إلى السماء ، ومد طرفه فى الهواء " والطباق " فتحير وتنظر يميناً وشمالاً " . وقد نجح التوحيدى فى جذب القارئ فعنصر التشويق نتج من طبيعة السرد والحوار إذ إن بين الحل وبين الخاتمة سرداً وحواراً احتل المساحة الكبرى من الأقصوصة بالقياس إلى بقية أجزائها على قصرها " وأخذوا ماله ..... فقتلوه " وهكذا يظل القارئ مشدوداً لآخر كلمة فى الخاتمة ليعرف هل تم القبض على قطاع الطريق ونالوا جزاءهم أم لا ؟

أما عن اللوحة الثانية التى تتعلق أيضاً بالمحادثة فأهم ملمح من الملامح القصصية بها بجانب السرد والحوار والأبطال والمقدمة والعقدة والحل والخاتمة هو عنصر الوصف . وهى عبارة عن قصة واقعية أبطالها هم الراوى وهو نفس الوقت البطل

فشخصية الراوى والبطل هنا قد اتحدتا . وهناك أيضاً شخصية جماعية هى مجموعة رفقائه من الصوفية . ومسرح الأحداث هو البادية . أما الزمان فهو صفر سنة أربع وخمسين وتبدأ اللوحة (٢٥) بمقدمة : " وكنت فى البادية فى صفر سنة أربع وخمسين ومعى جماعة من الصوفية . فلحقنا جهد من عوز القوت وتعذر ما يمسك الروح فى حديث طويل - إلا أنّا وصلنا من زبالة - بالحيلة اللطيفة منا . والصنع الجميل من الله تعالى - إلى شىء من الدقيق . فانتعشت أنفسنا به . وغنمناه . وأوليناه نفحة من نفحات الله تعالى الكريم ؛ فجعلناه زادنا . وسرنا ؛ فلما بلغنا المنزل قعدنا لنمارس ذلك الدقيق . ولقطنا البعر ودقاق الحطب" ثم تظهر الأزمة "فلما أجمعنا على العجن والملك لم نجد الحراق - وكان عندنا أنه معنا . وأننا قد استظهرناه" .

ثم يبدأ أبو حيان فى وصف ما اعتراهم من هم وغم وألم وتعب وجوع وسهر ظهرت آثاره على ملامحهم الخارجية والداخلية أى وصف ما بداخلهم من إحباط وحسرة وإجهاد ارتسم على وجوههم ؛ ولا شك أن هذا الوصف يساعد على تصعيد الأزمة . وتضخيم حجم المشكلة . كما أنه جدير بلفت النظر يقول : " فدخلتنا حيرة شديدة . وركبنا غم غالب . وسففنا من ذلك الدقيق شيئاً . فما ساغ ولا قبلته الطبيعة . وبتنا ليلتنا طاوين ساهرين . قد علانا الكمد . وملكنا الوجوم والأسف ؛ فقال بعضنا : هذا لما وجدنا الدقيق؟! وأصبحنا وركبنا قد استرخت . وعيوننا قد غارت . وأحدنا لايحدث صاحبه غماً وكرباً ؛ وعدنا إلى ما كنا فيه قبل بزيادة حسرة من النظر إلى الدقيق ؛ وقال صاحب لنا : نرمى بجراب الدقيق [حتى نلقى حمله وثقله فى طول هذا الطريق] ؛ فقلنا : ليس هذا بصواب . وما يضرنا أن يكون معنا . فلعلنا أن نرى ركباً أو نلقى حطباً ؛ وكانت البادية خالية فى ذلك الوقت . لرعب لحق قوما من بنى كلاب من جهة أعدائهم . فلم يكن يجتاز بها [فى ذلك الوقت] غريب . وبقينا كذلك إلى اليوم الثالث، ونحن نلاحق ونجاهد فى المشى" وقد امتزج الوصف بالحوار الجماعى وتعاونا على تحسيد العقدة كما كشف الحوار عن نمطين من الشخصية . شخصية أحد الأصحاب وهى يائسة فرأت رمى جراب الدقيق للتخفف من حمله . وأما الشخصية الأخرى فهى

بقية الرفقاء وهى متفائلة مازال الأمل يعيش بداخلها لذا فقد اعترضت على رمى الجراب عليهم يرون ركباً أويلقون حطباً علاوة على أن الكل يتمتع بقوة الإرادة والعزيمة والصبر والتحمل فقد واصلوا الرحلة متعبين . إن أبا حيان الذى ينتمى للمتصوفة يريد أن يلقى الضوء على ما تتمتع به تلك الجماعة - جماعة الصوفية - من إيمان وتقوى فكل هذا قد لاقوه فى طريق عودتهم من الحج، كما يبرز مدى جلدهم ومثابرتهم . ثم يأتى الحل " فلما كان العصر من ذلك اليوم كنت أسير أمام القوم أجراهم وأسألهم ، وكنت كالحاطب لهم : " إذا عثرنا بحراق وظفرنا بفتيلة " فوجدوا خرقة ملفوفة فيها حراق ، فهللوا وكبروا ، ورفعوا أصواتهم ؛ فقلت كالمتعجب : ما الخبر ؟ قالوا : البشرى ، قلت : وما ذاك ؟ قالوا : هذه خرقة ملئت حراقاً ، فلا تسل عما دهانا من الفرح والاستبشار؛ وثاب إلينا من السرور والارتياح ، وزال عنا من الانخذال والانكسار " . ثم نصل للخاتمة يقول : " وقعدنا فى مكاننا ذلك ، ولقطنا البعر ، وأثرنا الوقود ، وأججنا ناراً عظيمة، وملكنا الدقيق كله ملكة واحدة وكان أربعين رطلاً ، وكان ذلك بلاغنا إلى القادسية ؛ فلما دنونا منها تلقانا بشر من أهلها وقالوا لنا : كيف سلمتم فى هذه الطريق مع العوز والخوف ؟ فقلنا : لطف الله يقرب كل بعيد ، ويسهل كل شديد ، ويصنع للضعيف حتى يتعجب القوى " .

وهكذا نرى أن اللوحة السابقة غنية بالوصف ثرية بالمشاهد ؛ فهى تحتوى على أربعة مشاهد ؛ المشهد الأول يصور انتعاشهم بحصولهم على الدقيق ؛ وممارستهم له ، ولقطهم البعر ودقاق الحطب ؛ وإجماعهم على العجن والملك ، والمشهد الثانى يصور عدم حصولهم على الحراق وما اعتراهم من غم وهم وأسف وإحباط وجوع وتعب فإذا بركبهم قد استرخت وعيونهم قد غارت وعلاهم الصمت حزناً وكرباً وحسرة تزداد مع النظر إلى الدقيق، والمشهد الثالث يصور البادية وهى خالية إلا منهم وهم يجاهدون فى السير ثم يصور عثورهم على الحراق وظفرهم بفتيلة ويرسم ما علا وجوههم من الفرح والاستبشار والسرور والارتياح وقد عبروا عن ذلك الفرح بالتكبير والتهليل فالمشهد الثالث على

النقيض تماماً من المشهد الثانى فقد زال ما كانوا فيه من انكسار . أما المشهد الرابع فيصور لقطلهم للبحر و إثارتهم الوقود وتأجيجهم ناراً عظيمة وملكهم الدقيق كله ملكة واحدة . أما اللوحة الثالثة[٢٦] التى أوردها التوحيدى فى أمر الاتفاق فيبدؤها بمقدمة قائلاً " اصطحب رجلان فى بعض الطرق مسافرين مجوسى من أهل الرى ،وآخر يهودى من أرض جى ؛ وكان المجوسى راكباً بغلة له عليها سفرة من الزاد والنفقة وغيرذلك ، وهو يسير مرفهاً وادعاً واليهودى يمشى بلا زاد ولا نفقة ؛ فبينا هما يتحادثان إذ قال المجوسى لليهودى : ما مذهبك وعقيدتك يا فلان ؟ قال اليهودى : أعتقد أن فى هذه السماء إلهاً هو إله بنى إسرائيل ، وأنا أعبده وأقدسه وأضرع إليه ، وأطلب فضل ما عنده من الرزق المواسع والعمر الطويل ، مع صحة البدن ، والسلامة من كل آفة ، والنصرة على عدوى ، وأسأله الخير لنفسى ولمن يوافقنى فى دينى ومذهبى ، فلا أعبأ بمن يخالفنى ، بل أعتقد أن من يخالفنى دمه لى يحل وحرام على نصرته ونصيحته والرحمة به . ثم قال للمجوسى : قد أخبرتك بمذهبى وعقيدتى وما اشتمل عليه ضميرى ، فخبرنى أنت أيضاً عن شأنك وعقيدتك وما تدين به ربك ؟ فقال المجوسى : أما عقيدتى ورأيى فهو أنى أريد الخير لنفسى ولأبناء جنسى ، ولا أريد لأحد من عباد الله سوءاً ، ولا أتمنى له ضراً ، لا لموافقى ولا لمخالفى . فقال اليهودى : وإن ظلمك وتعدى عليك ؟ قال : نعم ، لأنى أعلم أن فى هذه للسماء إلهاً خبيراً عالماً حكيماً لا تخفى عليه خافية من شىء ، وهو يجزى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته . فقال اليهودى : يافلان لست أراك تنصر مذهبك وتحقق رأيك . قال المجوسى : كيف ذاك ؟ قال : لأنى من أبناء جنسك ،وبشر مثلك ، وترانى أمشى جائعاً نصباً مجهوداً ، وأنت راكب وادع مرفه شبعان . فقال : صدقت ، وماذا تبغى ؟ قال أطعمنى من زادك واحملنى ساعة ، فقد كللت وضعفت ، قال نعم وكرامة فنزل ومد من سفرته وأطعمه وأشبعه ، ثم أركبه ، ومشى ساعة بحدثه ؛ " وبعد تلك المقدمة تتجلى لنا العقدة " فلما ملك اليهودى البغلة وعلم أن المجوسى قد أعيا ، حرك البغلة وسبقه ، وجعل المجوسى يمشى ولا يلحقه ، فناداه : يافلان قف لى وانزل فقد انحسرت وانبهرت فقال اليهودى : ألم أخبرك عن مذهبى

وخبرتني عن مذهبك ، ونصرته ، وحققته ؟ فأنا أريد أيضاً أن أحقق مذهبي. وأنصر رأيي واعتقادي وجعل يحرك البغلة . والمجوسي يقفو على ظلع وينادي قف يا هذا واحملني ، ولا تتركني في هذا الموضع فيأكلني السبع وأموت ضياعاً ، وارحمني كما رحمتك . واليهودي لا يلوي على ندائه واستغاثته ، حتى غاب عن بصره فلما يئس المجوسي منه وأشفى على الهلكة ، ذكر اعتقاده وما وصف به ربه ، فرفع طرفه إلى السماء وقال : إلهي قد علمت أني اعتقدت مذهباً ونصرته ، ووصفتك بما أنت أهله ، وقد سمعت وعلمت ، فحقق عند هذا الباغي على ما مجدتك به ، ليعلم حقيقة ما قلت. "فيستجيب الله لدعائه " فما مشى المجوسي إلا قليلاً حتى رأى اليهودي وقد رمت به البغلة ، واندقت عنقه ، وهي واقفة ناحية منه تنتظر صاحبها فلما أدرك المجوسي بغلته ركبها ومضى لسبيله ،وترك اليهودي معالجاً لكرب الموت " ثم تصل للخاتمة " فناداه اليهودي: يا فلان ، ارحمني واحملني ولا تتركني في هذه البرية أهلك جوعاً وعطشاً، وانصر مذهبك، وحقق اعتقادك .... فرحمه المجوسي وحمله معه حتى وافى المدينة.....وقال بعض الناس للمجوسي [بعد] : كيف رحمته بعد خيانته لك ؟ وبعد إحسانك إليه ، قال المجوسي : اعتذر بحاله التي نشأ فيها ، ودأب عمره في اعتقادها ، وسعى لها واعتادها ، وعلمت أن هذا شديد الزوال عنه ، وصدقته ورحمته ، وهذا مني شكر على صنع الله بي حين دعوته عندما دهاني منه ، وبالرحمة الأولى أعانني ربي ، وبالرحمة الثانية شكرته على ما صنع بي ". وقد ركز التوحيدي في تلك اللوحة على رسم بعض من ملامح شخصية اليهودي بما فيها من غدر وخيانة وخسة ونذالة وتعصب شديد لأبناء جنسها مع كراهية أشد لغيرها وصلت إلى حد إباحة دمائهم ؛ ونستطيع القول إن أبا حيان قد صور شخصية اليهودي كما وردت في بعض الآداب سواء أكانت عربية أم أجنبية ، كما نرى ذلك على سبيل المثال في المسرحية الشهيرة التي كتبها شكسبير بعنوان " تاجر البندقية " حيث جسد شخصية اليهودي بخستها ونذالتها كأروع ما يكون التجسيد ، ويبرز تساؤل ملح يفرض نفسه يدور حول شخصية المجوسي في اللوحة السابقة ألا وهو كيف يجعل أبو حيان التوحيدي - المجوسي

تتقدم بأخذهم و صلب بعضهم و إحراق بعضهم و تغريق بعضهم ، فإن العقوبة إذا اختلفت كان الهول أشد ، و الهيبة أفشا ، و الزجر أنجع ، والعامة أخوف . فقال المعتضد - وكان أعقل من الوزير - : والله لقد بردت لهيب غضبي بفورتك هذه ، ونقلتني إلى اللين بعد الغلظة ، وحملتني على الرفق ، من حيث أشرت بالخرق ، و ما علمت أنك تستجيز هذا في دينك و هديك و مروءتك ، ولو أمرتك ببعض ما رأيت بعقلك و حزمك لكان من حسن المؤازرة و مبذول النصيحة و النظر للرعية الضعيفة الجاهلة أن تسألني الكف عن الجهل ، وتبعثني على الحلم ، وتحبب إليَّ الصفح وترغبني في فضل الإغضاء على هذه الأشياء ، وقد ساءني جهلك بحدود العقاب ، و بما تقابل به هذه الجرائر ، و بما يكون كفؤاً للذنوب ، ولقد عصيت الله بهذا الرأي و دللت على قسوة القلب و قلة الرحمة و يُبْس الطينة و رقة الديانة ، أما تعلم أن الرعية وديعة الله عند سلطانها ؟ و أن الله يسائله عنها كيف سُسْتها ؟ ولعله لا يسألها عنه ، وإن سألها فليؤكد الحجة عليه منها ؛ ألا تدري أن أحداً من الرعية لا يقول ما يقول إلا لظلم لحقه أو لحق جاره ، و داهية نالته أو نالت صاحباً له ؟...... لا والله ما الرأي ما رأيت ، و لا الصواب ما ذكرت ، وَجِّهْ صاحبك وليكن ذا خبرة و رفق ، و معروفاً بخير وصدق ، حتى يعرف حال هذه الطائفة ، ويقف على شأن كل واحد منها في معاشه ، وقدر ما هو منقلب فيه و منقلب إليه ، فمن كان منهم يصلح للعمل فعلقه به ، ومن كان سيئ الحال فصله من بيت المال بما يعيد نضرة حاله ، ويفيده طمأنينة باله ؛ ومن لم يكن من هذا الرهط ، و هو غنيٌّ مكفيٌّ ، وإنما يخرجه إلى دكان هذا التبان البطر والزهو ، فادع به ، وانصحه ، ولاطفه ، وقل له : إن لفظك مسموع ، وكلامك مرفوع ؛ ومتى وقف أمير المؤمنين على كنه ذلك منك لم تجدك إلا في عرصة المقابر ، فاستأنف لنفسك سيرة تسلم بها من سلطانك ، وتحمد عليها عند إخوانك ، وإياك أن تجعل نفسك عظة لغيرك بعد ما كان غيرك عظة لك .... فإنك يا عبيد الله إذا فعلت ذلك فقد بالغت في العقوبة ، و ملكت طرفي المصلحة ، وقمت على سواء السياسة ، و نجوت من الحوب و المأثم في العاقبة قال وفارق الوزير حضرة [الخليفة] ، وعمل بما أمر به

يتصرف وكأنه مسلم حسن الإسلام برغم وثنيته ؟!! وبرغم أن هذا الأمر يثير الدهشة إلا أننا نستطيع تفسير ذلك بقولنا إنه ربما يكون التوحيدى قد أسقط شخصيته هو كمسلم على المجوسى وبنفس الوقت أراد أن يبرز ما بداخل اليهود من شر لدرجة أن المجوسى الوثنى أفضل من ذلك اليهودى الذى يعبد الله على حرف .

و من اللوحات القصصية أيضاً هاتان القصتان اللتان وردتا فى الليلة الرابعة و الثلاثين و دارتا حول شغف الرعية بجميع مستوياتها و اهتمامها البالغ بتتبع أسرار الحاكم و قد مهد للوحتين بمقدمة طويلة تشمل شكوى الوزير من هذا الشغف و التماسه النصيحة بعد أن أعيته الحيلة ؛ و لا يبخل التوحيدى بتقديم الدواء من خلال تلك اللوحتين الأولى على لسان شيخه أبى سليمان ، أما الثانية فهى على لسان شيخ صوفى، و قد بدأ اللوحة الأولى بالإشادة بحكمة أبى سليمان و كثرة تجاربه و فضله ؛ و حبه للدولة و إشفاقه عليها من كل هبة و دبة ليكون ذلك من الأمور التى تقنع الوزير بتقبل تلك النصائح و العمل بها ، ثم يقدم لتلك اللوحة بمقدمة طويلة على لسان أبى سليمان توضح الصورة المثلى لما ينبغى أن تكون عليه العلاقة بين الحاكم و الرعية ؛ و أن الحاكم لا ينبغى عليه أن ينزعج من اهتمام العامة و لهجها بتعرف حال سائسها ؛ و الناظر فى أمرها ، و المالك لزمامها ؛ فهى تفعل ذلك حتى تكون على بيان من رفاهة عيشها و طيب حياتها ... ثم يبدأ فى عرض اللوحة قائلاً (٢٧) : " و حكى لنا أبو سليمان فى غرض هذا الكلام أنه رُفِعَ إلى الخليفة المعتضد أن طائفة من الناس يجتمعون [بباب الطاق و يجلسون] فى دكان شيخ تبان ، و يخوضون فى الفضول و الأراجيف و فنون من الأحاديث ، و فيهم قوم سراة و تناء و أهل بيوتات سوى من يسترق السمع منهم من خاصة الناس ، و قد تفاقم فسادهم و إفسادهم ، فلما عرف الخليفة ذلك ضاق درعاً ، و حرج صدراً ، و امتلأ غيظاً ، و دعا بعبيد الله بن سليمان ، و رمى بالرقيعة إليه و قال : انظر فيها و تفهمها ففعل ، و شاهد من تريد وجه المعتضد ما أزعج ساكن صدره ، و شرد آلف صبره ، و قال قد فهمت يا أمير المؤمنين قال فما الدواء ؟ قال

على الوجه اللطيف ، فعادت الحال ترف بالسلامة العامة، والعافية التامة ؛ فتقدم إلى الشيخ التبان برفع حال من يقعد عنده حتى يواسى إن كان محتاجاً ، ويُصَرَّف إن كان متعطلاً ، ويُنصح إن كان متعقلاً". وهكذا بعد أن استعرضنا اللوحة السابقة نستطيع أن نقول إن أبرز ما فيها من ملامح القصة تحديد المكان فهو باب الطاق ، والزمان فهو زمن حكم المعتضد ، وعنصر الحوار الذى استطعنا من خلاله تحديد بعض من ملامح شخصية المعتضد ووزيره عبيد الله بن سليمان ، فالمعتضد حكيم ذكى بعيد النظر كما أنه حليم عطوف يتقى الله فى رعيته ، فى مقابل شخصية وزيره الذى يلجأ إلى القسوة فى التعامل مع الرعية ؛ وهو إنسان طائش لا يحسن تقدير الأمور؛ والتوحيدى فى اللوحة السابقة يصف الحياة السياسية أيام الخليفة المعتضد وحسن معاملته للرعية ؛ولاشك أن هذه القصة لها علاقة بالواقع التاريخى حيث أجمعت كتب التاريخ على أن المعتضد كان وافر العقل ؛وكان شهماً جلداً ، فقام بالأمر أحسن قيام ؛ وكانت أيامه كثيرة الأمن والرخاء ، وكان قد أسقط المكوس ونشر العدل ، ورفع الظلم عن الرعية ، وفى أيامه سكنت الفتن وصلحت البلدان واستقامت له الأمور ورخصت الأسعار[٢٨] . ولأن أباحيان كان يطمح لمركز سياسى مرموق يتفق ومكانته الأدبية والفكرية ولكن أحلامه لم تتحقق فقد باءت كل محاولاته بالفشل فأحس بالإحباط وبأن سوء الحظ قد غمر علاقته بذوى السلطان فلم ينل الحظوة لديهم ؛ وكلما اتصل حبل الود بينه وبين أحدهم سرعان ما ينقطع وتتحول العلاقة بينهما إلى عداء وقطيعة كما حدث بينه وبين ابن العميد ، ثم بينه وبين الصاحب بن عباد ؛ ولأنه لم يستطع أن يحقق مجداً على خريطة الواقع السياسى فلم يلعب الدور الذى كان يتمنى أن يقوم بأدائه على مسرح الحياة السياسية فليحقق طموحاته و أحلامه و أمجاده من خلال عالمه الرحيب عالم الفن والأدب وليجعله القنطرة التى يعبر عليها ليسقط رؤيته السياسية بطريقة غير مباشرة ناصحاً الوزير و موضحاً له كيف تكون العلاقة بين الحاكم والمحكوم علاقة سوية

ثم ينتقل أبو حيان للوحة الثانية التي يرويها على لسان شيخ صوفي قال "كنت بنيسابور سنة سبعين وثلثمائة . وقد اشتعلت خراسان بالفتنة . وتبلبلت دوله آل سامان بالجور وطول المدة . فلجأ محمد بن إبراهيم صاحب الجيش إلى قاين . وهي حصنه ومعقله . وورد أبو العباس صاحب جيش آل سامان نيسابور بعدة عظيمة . وعدة عميمة . وزينة فاخرة . وهيئة باهرة . وغلا السعر . وأخيفت السبل . وكثر الإرجاف . وساءت الظنون . وضجت العامة . والتبس الرأى . وانقطع الأمل . ونبح كلبٌ كلبٌ من كل زاوية . وزأر كل أسد من كل أجمة . وضبع كل ثعلب من كل تلعة .

قال : وكنا جماعة غرباء نأوى إلى دويرة الصوفية لا نبرحها . فتارة نقرأ . وتارة نصلى . وتارة ننام . وتارة نغذى . والجوع يعمل عمله . ونخوض فى حديث آل سامان . والوارد من جهتهم إلى هذا المكان . ولا قدرة لنا على السياحة لانسداد الطرق . وتخطف الناس للناس . وشمول الخوف . وغلبة الرعب . وكان البلد يتقد ناراً بالسؤال والتعرف والإرجاف بالصدق والكذب . وما يقال بالهوى والعصبية ؛ فضاقت صدورنا . وخبثت سرائرنا واستولى علينا الوسواس . وقلنا ليلة : ما ترون يا صحابنا [ما] دُفعنا إليه من هذه الأحوال الكريهة . كأنا والله أصحاب نعم وأرباب ضياع نخاف عليها الغارة والنهب . وما علينا من ولاية زيد . وعزل عمرو . وهلاك بكر . ونجاة بشر . نحن قوم قد رضينا فى هذه الدنيا العسيرة ولهذه الحياة القصيرة . بكسرة يابسة . وخرقة بالية . وزاوية من المسجد مع العافية من بلايا طلاب الدنيا . فما هذا الذى يعترينا من هذه الأحاديث التى ليس لنا فيها ناقة ولا جمل . ولا حظ ولا أمل . قوموا بنا غداً حتى نزور أبا زكرياء الزاهد . ونظل نهارنا عنده لاهين عما نحن فيه . ساكنين معه . مقتدين به ؛ فاتفق رأينا على ذلك . فغدونا وصرنا إلى أبى زكرياء الزاهد . فلما دخلنا رحب بنا . وفرح بزيارتنا . وقال ما أشوقنى إليكم . وما ألهفنى عليكم ! الحمد لله الذى جمعنى وإياكم فى مقام واحد . حدثونى ما الذى سمعتم . وماذا بلغكم من حديث الناس . وأمر هؤلاء السلاطين ؟ فرُحوا عنى . وقولوا لى ما عندكم . فلا

تكتموني شيئاً فما لي و الله مرعىً في هذه الأيام إلا ما اتصل بحديثهم . و اقترن بخبرهم، فلما ورد علينا من هذا الزاهد العابد ما ورد . دُهشنا و استوحشنا . و قلنا في أنفسنا انظروا من أي شيء هربنا . و بأي شيء علقنا . و بأي داهية دُهينا . قال : فخففنا الحديث و انسللنا . فلما خرجنا قلنا : أرأيتم ما بلينا به . و ما وقعنا عليه ؟ (إن هذا لهو البلاء المبين) . ميلوا بنا إلى أبي عمرو الزاهد فله فضل و عبادة و علم و تفرد في صومعته حتى نقيم عنده إلى آخر النهار، فقد نبا بنا المكان الأول . و بطل قصدنا فيما عزمنا عليه من العمل . فمشينا إلى أبي عمرو الزاهد و استأذنا . فأذن لنا . ووصلنا إليه فسُرَّ بحضورنا . و هش لرؤيتنا . و ابتهج بقصدنا . و أعظم زيارتنا . ثم قال : يا أصحابنا ما عندكم من حديث الناس ؟ فقد و الله طال عطشي إلى شيء أسمعه . و لم يدخل عليَّ اليوم أحد فأستخبره . و إن أذني لدى الباب لأسمع قرعة أو أعرف حادثة . فهاتوا ما معكم و ما عندكم . وقصوا عليَّ القصة بفصها و نصها . و دعوا التورية و الكناية . و اذكروا الغث و السمين . فإن الحديث هكذا يطيب . و لولا العظم ما طاب اللحم . و لولا النوى ما حلا التمر . و لولا القشر لم يوجد اللب . فعجبنا من هذا الزاهد الثاني أكثر من عجبنا من الزاهد الأول . و خاطفناه الحديث . و ودعناه . و خرجنا . و أقبل بعضنا على بعض يقول : أرأيتم أظرف من أمرنا و أغرب من شأننا ؟ انظروا من أي شيء كان تعريجنا (إن هذا لشيء عجاب) و تلددنا و تبلدنا و قلنا يا أصحابنا : انطلقوا إلى أبي الحسن الضرير . و إن كان مضربه بعيداً فإنا لا نجد سكوننا إلا معه . و لا نظفر بضالتنا إلا عنده . لزهده و عبادته و توحده و شغله بنفسه مع زمانته في بصره . و ورعه . و قلة فكره في الدنيا و أهلها ! و طوينا الأرض إليه . و دخلنا عليه . و جلسنا حواليه في مسجده . و لما سمع بنا أقبل على كل واحد منا يلمسه بيده و يرحب به . و يدعو له و يقرب . فلما انتهى أقبل علينا [وقال] : أمن السماء نزلتم عليَّ ؟ و الله لكأني قد وجدت بكم مأمولي . و أحرزت غاية سولي، قولوا لي غير محتشمين : ما عندكم من أحاديث الناس ؟ و ما عزم عليه هذا الوارد ؟ و ما يقال في أمر ذلك الهارب إلى قادر و ما الشائع من الأخبار ؟ و ما الذي يتهامس به ناس دون ناس ؟ و ما يقع في

هواجسكم و يستبق فى نفوسكم ؟ فإنكم بريد الآفاق ، و حوالة الأرض ، و لقاطة الكلام ، و يتساقط إليكم من الأقطار ما يتعذر على عظماء الملوك و كبراء الناس ، فيرد علينا من هذا الإنسان ما أنسى الأول و الثانى ، و مما زاد فى عجبنا أنا كنا نعده فى طبقة فوق طبقات جميع الناس فخففنا الحديث معه ، وودعناه ، و خنسنا من عنده ، و طفقنا نتلاوم على زيارتنا لهؤلاء القوم لما رأينا منهم .... و انقلبنا متوجهين إلى دويرتنا التى غدونا منها مستطرقين كالين ، فلقينا فى الطريق شيخاً من الحكماء يقال له أبو الحسن العامرى ، و له كتاب فى التصوف قد شحنه بعلمنا و إشارتنا ، و كان من الجوالين الذين نقبوا فى البلاد و اطلعوا على أسرار الله فى العباد؛ فقال لنا : من أين درجتم ؟ و من قصدتم . فأجلسناه فى مسجد ، وحففنا حوله ، و قصصنا عليه قصتنا من أولها إلى آخرها ، و لم نحذف منها حرفاً؛ فقال لنا : فى طى هذه الحال الطارئة غيب لا تقفون عليه ، و سر لا تهتدون إليه ، و إنما غركم ظنكم بالزهاد ، و قلتم لا ينبغى أن يكون الخبر [عندهم كالخبر] عن العامة لأنهم الخاصة ، و من الخاصة خاصة الخاصة ، لأنهم بالله يلوذون ، و إياه يعبدون ، و عليه يتوكلون..... قلنا له : فإن رأيت يا معلم الخير أن تكشف عنا هذا الغطاء ، وترفع هذا الستر.... فقال : نعم ، أما العامة فإنها تلهج بحديث كبرائها و ساستها لما ترجوه من رخاء العيش و طيب الحياة و سعة المال...... ! فأما هذه الطائفة العارفة بالله ، العاملة لله ، فإنها مولعة أيضاً بحديث الأمراء ، و الجبابرة العظماء ، لتقف على تصاريف قدرة الله فيهم ، و جريان أحكامه عليهم ، و نفوذ مشيئته فى محابهم و مكارههم فى حال النعمة عليهم ، و الانتقام منهم ، ألا ترونه قال جل ثناؤه : (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) ، و بهذا الاعتبار يستبطنون خوافى حكمته ، و يطلعون على تتابع نعمته و غرائب نقمته . و هنا هنا يعلمون أن كل ملك سوى ملك الله زائل و كل نعيم غير نعيم الجنة حائل ويصير هذا كله سبباً قوياً لهم فى الضرع إلى الله ، و اللياذ بالله ، و الخشوع لله - قال الشيخ الصوفى فوالله ما زال ذلك الحكيم يحشو آذاننا بهذا و ما أشبهه ، و يملأ صدورنا من عنده حتى سُررنا و انصرفنا إلى متعشانا و قد استفدنا على يأس منا فائدة

عظيمة.... "(٢٩) و أبرز ما فى تلك اللوحة من ملامح القصة تحديده للزمان (سنة ٣٧٠هـ) و تحديده للمكان (خراسان) ووصفه للفتنة التى اشتعلت فهو يتابع الأحداث التاريخية فى زمنه و يحاول أن يجسدها ؛ كما أنه وصف حياة المتصوفة و قدم لنا الفرق بين رؤية العامة للسلطان ورؤية المتصوفة فأوضح الفرق بين بسبب اهتمام العامة بالتنقيب عن أسرار السلطان و أخبار الدولة ، و بين سبب شغف المتصوفة بمعرفة هذه الأمور التى تهتم بها للعبرة و العظة و قد برع أبو حيان فى الحوار براعة فائقة و خاصة فى الأسئلة التى وردت على لسان المتصوفة و التى عبرت عن مدى لهفتهم لسماع الأخبار. أما هدف أبى حيان من إيراد هذه القصة فهو إبراز الوجه المشرق للمتصوفة و تغيير النظرة إليهم ، أى الدفاع عنهم باعتباره واحداً منهم و الدليل على ذلك دهشة الوزير عند سماعه لتلك القصة و تعليقه عليها قائلاً : "ما علمت أن فى البحث عن سر الإرجاف هذه اللطيفة الخفية ، و هذه الحجة الجلية ، وكنت أرى أن الصوفية لا يرجعون إلى ركن من العلم ، و نصيب من الحكمة ، و أنهم إنما يهذون بما لا يعلمون ، و أن بناء أمرهم على اللعب و اللهو و المجون ..... "(٣٠)

و من اللوحات ذات القاسم المشترك أيضاً هاتان اللوحتان اللتان وردتا فى الليلة الثامنة و الثلاثين و دارتا حول قضية هامة و هاجس ملح يسيطر على أبى حيان و يسكن بخلده ألا و هو أن الحظ قد يرفع من شأن أراذل الناس فينالون مكانة مرموقة و ينعمون بالحظوة لدى ذوى السلطان ؛ و على العكس قد يخفض من شأن العظماء فلا ينالون المكانة التى هم أهل لها نتيجة سوء جدودهم ؛ فأبو حيان كان يشعر فى أعماق نفسه بذاته و بعظمة قدراته و إمكاناته الأدبية و الفكرية و الفلسفية و برغم ذلك لم ينل المنزلة التى كان يطمح إليها . و يروى أبو حيان اللوحة الأولى قائلاً (٣١): "حدثنى أبو على الحسن بن على القاضى التنوخى قال . كنت فى الصحبة إلى همذان سنة تسع و ستين ، وكنا جماعة و فينا ابن حربنار أبو محمد ، و كان فى جنبه ابن يوسف ، فاتفق أن عضد الدولة - برد الله مضجعه - قال لابن شاهويه : سر إلى ابن حربنار و قل له -

ينبغي أن تسير إلى البصرة و إنا نجعل لك فيها معونة . فقد طال مقامك عندنا ، و توالى تبرمنا بك، و تبرمك بنا . وليس لك بحضرتنا ما تحبه و تقترحه ... قال : و نفذ أبو بكر و معه آخر من المجلس يشهد التبليغ و الأداء ، و يسمع الجواب و الابتداء .... فلقي ابن حرنبار و شافهه بالرسالة على التمام ؛ فقال أبو محمد لما سمع : الأمر للملك ، و لا خلاف عليه ؛ و لعمري إن الناس بجدودهم ينالون حظوظهم ، و بحظوظهم يستديمون جدودهم ؛ ولو وُفِّقْتُ ما كان عجيباً ، فقد نال من هو أنقص مني ، و بلغ المنى من أنا أشرف منه ، ولكن المقادير غالبة ، وليس للإنسان عنها مرتحل ؛ و قد قيل : من ساور الدهر غلب". ثم تبدأ العقدة في الظهور "ولكن أيها الشيخ لي حاجة : أحب ان تبلغ الملك كلمة عني . قال : هاتها ؛ قال : تقول له : أنا صائر إلى ما رسمت ، و ممتثلٌ ما أمرت ، بعد أن تقضي لي وطراً في نفسي ، قد تقطع عليه نفسي ، و ذاك أن تتقدم فيقام عبد العزيز بن يوسف بين اثنين فيصفعانه مائتين ، و يقولان له : إذا لم تبذل جاهك لمتلهف ، و لا عندك فرج لمكروب ، و لا بر لضعيف ، و لا عطاء لسائل ، و لا جائزة لشاعر ، و لا مرعى لمنتجع ، و لا مأوى لضيف ، فلم تخاطب بسيدنا ، و تُقَبِّلُ لك اليد ، و يُقامُ لكَ إذا طلعتَ؟؟ " و يزداد الموقف تأزماً "قال ابن شاهويه : فقبل أن لقيتُ الملك أفصح له الذي كان معي مشرفاً عليَّ . فلما دخلتُ الدار عُرِفَ ، فقال : عليَّ به ، فحضرته و ابن يوسف قاعد بين يديه على رسمه . فقال لي : هات الجواب عما نفذت فيه ؛ فقلت : الجواب عندك ، فقال : ما أعجب هذا ! أنت حُمِّلْتَ رسالة و أطالب غيرك بالجواب ؟ قال فتلوّنتُ حياءً من ابن يوسف ، فقال : هات يا هذا الحديث بفصه، فوالله لا أُقنع إلا به ، ما هذا التواني و التكاسل " ثم تنفرج الأزمة "فكررتُ اللجاج ، فسردته على وجهه ، ولم أغادر منه حرفاً ، و ابن يوسف يتقدد في إهابه، و يتغير وجهه عند كل لفظة تمر به ". ثم تأتي الخاتمة "فأقبل عليه الملك و قال : كيف ترى يا أبا القاسم الكيس ؟ فقال : يا مولانا ، إنما أنا أقضي الحاجة بك ، فإذا لم تقضها كيف أكون ؟ فإن الحوائج كلها إليك .قال : صدقتَ ، أنا لا أقضي حاجة لك ، لأنك لا تقصد بها وجه الله ، و لا تبغي بها مكرمة ، و لا تحفظ بها مروءة ، و إنما ترتشي عليها ،

و مصابع بها . وتجعلني بابا من أبواب تجارتك و أرباحك ...... و ليس الذنب لك ، و لكن لمن رآك إنساناً و أنت كلب . و صدق - صدَقَ اللهُ قوله - فإنه كان أخس خلق الله و أنس الناس و أقدر الناس . لا منظر و لا مخبر . و كانت أمه مغنية من أهل البيضاء ، و أبوه من أسقاط الناس ، و نشأ مع أشكاله . و كان في مكتب الريضي على أحوال فاحشة ، و ورَّق زماناً ، ثم إن الزمان نوَّه به ، و نبّه عليه ، و مثل هذا يكون ، و الأيام ظهور و بطون ؛ و كما يسقط الفاضل إذا عانده الجد ، كذلك يرتفع الساقط إذا ساعده الجد فهذا هذا " . وقد أبدع أبو حيان في السرد و الحوار و خاصة حينما عبر عن امتثال ابن حرنبار لأمر الملك وحينما طلب ابن حرنبار ذلك الطلب البسيط الذى أكسب الموقف درامية و متعة و إثارة فابن شاهويه يتردد حياءً و خجلاً من سرد الرسالة للخليفة في حضرة ابن يوسف و لكن الخليفة يأمر بالإجابة كاملة طالباً الحديث بفصه مما يجعل الموقف يصل إلى ذروة التأزم ، و لا يملك ابن شاهويه إلا السمع و الطاعة فيسرد الحديث على وجهه و لا يغادر منه حرفاً عندئذ يتفجر الموقف و يبدع أبو حيان في تصوير انفعالات ابن يوسف و أثر وقع كلّ لفظة تمر على وجهه . وقد استطاع التوحيدى من خلال تلك اللوحة أن يصيب أكثر من هدف بسهم واحد فقد عبر عن نقده للخلفاء و ذوى السلطان و بث شكواه بطريقة غير مباشرة على لسان ابن حرنبار فهم يقربون أراذل الناس ويمنحونهم أعلى المناصب في حين أن هناك من هم أجدر منهم و أحق بها و قد عبر أبو حيان عن تلك الفكرة أروع تعبير حيث يقول على لسان ابن حرنبار : " و لعمرى إن الناس بجدودهم ينالون حظوظهم ، و بحظوظهم يستديمون جدودهم ، و لو وقفت ما كان عجيباً ، فقد نال من هو أنقص مني ، و بلغ المنى من أنا أشرف منه " كما عبر أيضاً التوحيدي عن نقده لذوى السلطان بطريقة غير مباشرة الذين يعجزون عن الإيفاء بما تمليه عليهم مكانتهم السياسية و الاجتماعية فلا يقومون بأداء واجباتهم تجاه الرعية و من هنا تحدث المفارقة بين ما هم عليه و بين فعالهم على لسان ابن حرنبار " و ذاك أن تتقدم فيقام عبد العزيز بن يوسف بين اثنين فيصفعانه مائتين ويقولان له : إذا لم تدل جاهك لملهوف ، و لا عندك فرج لمكروب ، و لا بر

لضعيف ، و لا عطاء لسائل ... ، فلم نخاطب بسيدنا ، و تقبل لك اليد " وهذا ما جعل حرج ابن شاشويه يزداد من نقل هذه الرسالة إلى عضد الدولة و أكسب الموقف المزيد من الإثارة كما استطاع التوحيدي أيضاً أن يقوم كعادته بدور الناصح للوزير فعليه ان يحذر ممن حوله من المنافقين أهل الرشا و الفساد و أن يطهر بلاطه منهم حتى نستقيم الأمور ؛ كما يهدف أبو حيان أيضاً من تلك اللوحة أن يشوه صورة ابن يوسف في مجلس ابن سعدان لما كان بينه وبينهما من عداء وهناك شيء جدير بلفت النظر ينبغي أن نشير إليه و هو أن أبا حيان قد بدأ اللوحة السابقة بقوله "وجرى ليلة بحضرة الوزير - أعلى الله كلمته ،وأدام غبطته .... حديث ابن يوسف و ما هو عليه من غثاثته و رثاثته ، و عيارته و خساسته .

فقلت له : عندي حديث ، و لا شك أن الوزير مطلع عليه ، عارف به "[٣٢] وختم اللوحة بقوله على لسان الوزير : " ما كان هذا الحديث عندي ، و إنه لن الغريب"[٣٣] .

و نستنتج من هذا أنه قد تكون هذه القصة قد حدثت بالفعل و الوزير لم يسمعها من قبل أو أنها لم تحدث و هي من نسج خيال أبي حيان لينصح الوزير بطريقة غير مباشرة و ليوصل ما يريد أن يوصله للحكام و الساسة بذكاء و دهاء . و الحقيقة أن هذا لا ينطبق على تلك اللوحة فحسب بل هناك بعض اللوحات الأخرى يبثها للوزير بنفس الطريقة بادئاً بأنها قصة معروفة لابد أن ابن سعدان قد سمعها و يختمها بقول الوزير إنه لم يسمعها من قبل ؛ و في كلا الحالين فإن الأسلوب أسلوب أبي حيان بما فيه من إبداع و تشويق و إمتاع .

أما عن اللوحة الثانية التي تعبر عن نفس الهاجس الذي عبرت عنه اللوحة السابقة؛ ذلك الهاجس الذي كان يتربع في أعماق أبي حيان ؛ وعلى الرغم من تعدد مشاهد تلك اللوحة إلا أنها تصب في نهر واحد ، وقد بدأها أبو حيان بمقدمة فقد سأله الوزير قائلا[٣٤]: " كيف خبرك في الفتنة التي عرضت وانتشرت، وتفاقمت وتعاظمت " ؟ ويتحول هنا أبو حيان إلى راوية فيرد قائلا : " فكان من الجواب تحيير من شهد أولها ،

وغرق فى وسطها ، وبجا فى أحرها " فيرد الوزير قائلا : " حدثنى فإن فى روايته وسماعه نبصرة وتعجباً وزيادة فى التجربة . وقد قيل : تجارب المتقدمين ، مرايا المتأخرين . وليس من حادثة ماضية إلا وهى تعرفك الخطأ والصواب منها لتكون على أهبة فى أخذك وتركك" وهكذا كان أبو حيان دائما يشير إلى ضرورة الاستفادة من تجارب الماضى وأخذ العظة والعبرة سواء أكان ذلك على لسانه أم على لسان الوزير ثم يبدأ فى سرد الحادثة قائلا : "كان أول هذه الحادثة الفظيعة البشعة التى حيرت العقول وولهت الألباب ، ..... وإذا أراد [الله تعالى] ذكره أن يعظم صغيرا فعل ، وإذا شاء أن يصغر عظيما قدر ، له الخلق والأمر.." وبذلك نكون قد عدنا مرة أخرى لتلك القضية وذلك الهاجس الذى كان يشغل بال أبى حيان فكم من صغير قد عظم وكم من عظيم قد صغر فقد يرتفع شأن أراذل الناس وينخفض شأن أكابرهم إذا أراد الله سبحانه وتعالى ذلك لحكمة لا يعلمها إلا هو؛ فمشيئته نافذه ولا راد لقضائه ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون . ثم يبدأ أبو حيان فى عرض المشهد الأول من اللوحة الذى يتمثل فى وصف الفتنة وهجوم الروم البشع ؛ وانزعاج الناس وفزعهم ؛ هذا وقد انقسمت العامة طائفتين ؛ طائفة ترق للدين ولما دهم المسلمين ، وطائفة وجدت فرصتها فى الفساد والنهب ؛ ومن ثم فقد ثارت تلك الطائفة التى تخشى على الدين الضياع واجتمعت عند الشيوخ والعلماء لالتماس حل ينقذ الإسلام ؛ ويتم الاتفاق على تحرك بعض رجال الدين والعلماء والأشراف إلى الكوفة لمقابلة عز الدولة ذلك الرجل الذى انشغل عن حماية الإسلام والاهتمام بمصالح الرعية بالقصف والعزف والصيد علهم يستطيعون مواجهة تلك المحنة والقضاء عليها يقول:" وذاك أن الروم تهايجت على المسلمين ، فسارت إلى نصيبين بجمع عظيم زائد على ما عُهد على مر السنين، وكان هذا فى آخر سنة اثنتين وستين . فخاف الناس بالموصل وما حولها ، وأخذوا فى الانحدار على رعب قُذف فى قلوبهم ..... وماج الناس بمدينة السلام واضطربوا .. ولما اشتعلت النائرة واشتغلت الثائرة ، صاح الناس النفير النفير ، وإسلاماه ، وا محمداه واأسراه ، فى أيدى الروم الطغاه وكان عز الدولة قد خرج فى ذلك الأوان إلى الكوفة

للصيد ، ..... ؛ فاجتمع الناس عند الشيوخ والأشراف والعلماء ، وقالوا : الله الله ، انظروا فى أمر الضعفاء وأحوال الفقراء ؛ واغضبوا لله و لدينه .... فسكن المشايخ منهم، ووعدوهم أن يرتأوا فيه متفقين ... ويستخيروا الله صارعين ؛ وانصرف الناس عنهم ، واجتمع القوم ... . وتشاوروا وتفاوضوا ... والتام لهم من ذلك أن تخرج طائفة وراء الأمير بختيار إلى الكوفة وتلقاه وتعرفه ماقد شمل مدينة السلام.... وأن الخوف قد غلبهم .... وأنهم يقولون : لو كان لنا خليفة أو أمير أو ناظر سائس لم يفض الأمر إلى هذه الشناعة؛ وأن أمير المؤمنين المطيع لله إنما ولاه ماوراء بابه ليتيقظ فى ليلة ، متفكراً فى مصالح الرعايا ، وينفذ فى نهاره آمراً وناهياً مايعود بمراشد الدين ، ومنافع الدانين والقاصين والإ فلا طاعة ..... "

وقد اعتمد أبو حيان فى هذا المشهد على الوصف والحوار و السرد والتحديد الزمنى والمكانى للفتنة مجسداً أحداث عصره تجسيداً واقعياً ؛ ولم ينس كعادته دائماً أن ينوه بواجبات الحاكم تجاه الرعية ؛ وهى مسئولية ضخمة وعبء ثقيل يقتضى العمل الجاد وبذل الجهد المتواصل وإلا فلا طاعة له عليهم فى نقد لاذع لأصحاب السلطة الذين لا يقومون بدورهم مما يعرض البلاد والعباد للمحن والمعاناة .

ثم ينتقل إلى المشهد الثانى وهو وصف مقابلة بعض المشايخ والأشراف لعز الدولة سارداً حديث كل منهم ثم رده عليهم يقول : " سارت الجماعة إلى الكوفة ، ولحقت عز الدولة فى التصيد ، وانتظرته ؛ فلما عاد قامت فى وجهه واستأذنت فى الوصول إليه على خلوة وسكون بال وقلة شغل ؛ فلم يلتفت إليهم ، ولا عاج عليهم - وكان وافر الحظ من سوء الأدب ، قليل التحاشى من أهل الفضل والحكمة - ثم قيل له : إن القوم وردوا فى مهم لا يجوز التغافل عنه ..... ، فأذن لهم ..... فجلسوا بحضرته ..... فقال : تكلموا ... فقال أبو بكر . .... ؛ أما بعد . فإن الله [تعالى] قد حض على الجهاد ، وأمر بإعزاز الدين والذب عن الحريم والإسلام والمسلمين فى الدهر الصالح، والزمان المحلمش ؛ فكيف إذا اضطرب الحبل وانتكثت مريرته وعُرِّى حريمه بالاستباحة وقصد ركنه بالهدم ، وأنت أيها المولى من وراء سدّة أمير المؤمنين المطيع لله ، والحامل

لأعباء مهماته .. ؛ والمفزع إليك ، والمعول عليك ، فإن كان منك جد وتشمير فما أقرب الفرج مما قد أظل وأزعج ، وإن كان منك توان وتقصير فما أصعبه من خطب ..... وقد جئناك بحقق عندك ما بلغك من توسط هذه الطاغية أطراف الموصل وما والاها ، وأن الناس قد جلوا عن أوطانهم ، وفُتنوا فى أديانهم .. للرعب الذى أذهلهم ... ؛ وإنما هم بين أطفال صغار ، ونساء ضعاف ، وشيوخ قد أخذ الزمان منهم ، فهم أرض لكل واطئ ، ونهب لكل يد ؛ وشباب لا يقفون لعدوهم لقلة سلاحهم ، وسوء تأتيهم فى القراع والدفاع ؛ ونحن نسألك أن تتوخى فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ما يزلفك عنده ... ثم اندفع على بن عيسى فقال : أيها الأمير ، إن الصغير يُتدارك قبل أن يكبر ، فكيف يجوز ألا يستقبل بالجد والاجتهاد وهو قد .. كبر ، والله إن بنا إلا أن يظن أهل الجبل وأذربيجان وخراسان أنه ليس لنا ذاب عن حريمنا ، ولا ناصر لديننا ، ولا حافظ لبيضتنا ، ولا مفرج لكربتنا ، ولا من يهمه شيء من أمورنا ، فالله الله ، لا تجرَّنَّ علينا شماتتهم بنا ، وخذ بأيدينا بقوتك ... ، وعزك وسلطانك ، وأوليائك وأعوانك ، واكتب قبل هذا إلى عدة الدولة بما يبعثه على حفظ أطرافه ، وحراسة أكنافه ... ثم رفع الأنصارى رأسه وقال: ..... ، وقال العوامى :..... فقال عز الدولة : مازوى عنى ما طرق هذه البلاد ، ولقد أشرفت عليه ، وفكرت فيه ، وما أحببت تجشم هذه الطائفة على هذا الوجه ، وما أعجبنى هذا التقريع من الصغير والكبير ، وما كان يجوز لى أن أنعس على هذه الكارثة ، وأنعم بالعيش معها ، ولعمرى إن الغفلة [علينا] أغلب ، والسهو فينا أعمل ، ولكن فيما ركبتموه منى تهجين شديد ، وتوبيخ فاحش .... ، وإنكم لتظنون أنكم مظلومون بسلطانى عليكم ، وولايتى لأموركم ؛ كلا ، ولكن كما تكونون يولى عليكم ؛ هكذا قول صاحب الشريعة فينا وفيكم ؛ والله لو لم تكونوا أشباهى لما وليتكم .. ؛ ولو خلا كل واحد منا بعيب نفسه لعلم أنه لا يسعه وعظ غيره ، وتهجين سلطانه ؛ أيظن هذا الشيخ أبو بكر الرازى أنى غير عالم بنفاقه ، ولا عارف بما يشتمل عليه من خيره وشره ؛ يلقانى بوجه صلب ولسان هدار يرى من نفسه أنه الحسن البصرى يعظ الحجاج بن يوسف ، أو واصل بن عطاء يأمر بالمعروف .... " وكما لاحظنا أن مسرح الأحداث فى هذا المشهد

قد انتقل إلى الكوفة وقد كشف لنا هذا المشهد من خلال الوصف والسرد والحوار بعضا من ملامح شخصيات العلماء والشيوخ كما عرى حقيقة شخصية عز الدولة ؛ فالعلماء كما رأينا شديدو القلق على الإسلام شديدو الإشفاق على الرعية حاولوا بطريقة مهذبة توجيه النصح لعز الدولة منوهين بما يجب عليه فعله فى مواجهة الأزمة مؤكدين له استعدادهم التام للتضحية والكفاح والمساندة تحت رايته . أما عز الدولة فهو شخصية متعجرفة ، وافرة الحظ من سوء الأدب والدليل على ذلك عدم احترامه للعلماء والمشايخ الذين لم يلتفت إليهم وهم أهل الفضل والحكمة إلا بعد أن نُصح ممن حوله بضرورة الإذن لهم ، ومما يؤكد سوء أدبه ذلك التقريع واللوم الذى وجهه للعلماء وخاصة لأبى بكر الرازى . وعز الدولة أيضاً إنسان مستهتر بشؤون الرعية لا يقوم بواجبه نحوها وليس أدل على ذلك من انشغاله بالطرد والصيد فى مثل تلك الظروف البشعة التى تعانى منها البلاد ؛ وعندما حاول الدفاع عن نفسه أمام المشايخ والعلماء استشهد بالقول المأثور " كما تكونون يولى عليكم " كما عزا عدم مواجهته للأزمة إلى الغفلة والسهو . وهكذا استغل أبو حيان المشهد السابق فى عرض فكره السياسى على مائدة الأدب موجهاً النقد اللاذع لأصحاب السلطة محدداً واجبهم تجاه الرعية من خلال عرضه لذلك المشهد بما اشتمل عليه من حوار على ألسنة الشيوخ والعلماء فهو يقوم دائماً بدور الناصح ولكن من وراء حجاب ؛ ومن خلال تعريته أيضاً لذلك النمط البشرى الواقعى - عز الدولة - فهو لم يصفه إلا بما أكده التاريخ(٣٥).

ونظراً لسوء الأحوال الاقتصادية وزيادة الضرائب وسوء توزيع الثروة والتفاوت الطبقى فترة حكم عز الدولة فقد انتهزت الطائفة الثانية من العامة التى أشرنا إليها والتى اتجهت للسلب والنهب فرصة مهاجمة الروم لحدود الدولة ففجرت ما بداخلها من بركان متحفز ، وهبت إلى السلاح لا لتشهره فى وجه الروم وإنما لتحصل به على الزرق وقد نجحت عصائب الفتيان تلك وهم مايسمون "بالعيّارين" فى أن تكون لهم السيادة ببغداد ؛ وهذا هو موضوع المشهد الثالث من اللوحة الذى بدأه أبو حيان بسؤال الوزير له "هل سمعت فى أيام الفتنة بغريبة ؟ قلت كل ما كنا فيه [كان] غريبا بديعا عجيبا

شديعاً ، حصل لنا من العيارين فواد ، وأشهرهم ابن كيرويه ، وأبو الدود... وأسود الزبد وشنب العاره ، وانصل النهب ، وتوالى الحريق ... فمن غريب ما جرى أن أسود الزبد كان عبدا يأوى إلى قنطرة الزبد ويلتقط النوى ويستطعم من حضر ذلك المكان بلهو ولعب ، وهو عُريان لا يتوارى إلا بخرقة ، ولا يؤبه له ، ولا يبالى به ، ومضى على هذا دهر، فلما حلت النفرة ؛ أعنى لما وقعت الفتنة ، وفشا الهرج والمرج ، ورأى هذا الأسود من هو أضعف منه قد أخذ السيف وأعمله ، طلب سيفاً و شحذه ، ونهب وأغار وسلب ، وظهر منه شيطان فى مسك إنسان ، وصبح وجهه ، وعذب لفظه ، وحسن جسمه ، وعُشق وعَشِق ، والأيام تأتى بالغرائب والعجائب ، وكان الحسن البصرى يقول فى مواعظه : المعتبر كثير ، والمعتبر قليل ، فلما دُعِىَ قائداً وأطاعه رجال وأعطاهم وفرق فيهم، وطلب الرئاسة عليهم ، صار جانبه لا يُرام ، وحماه لا يُضام ،

فما ظهر من حسن خلقه - مع شره ولعنته ، وسفكه للدم ، وهتكه للحرمة ، وركوبه للفاحشة ، وتمرده على ربه القادر ، ومالكه القاهر - أنه اشترى جارية كانت فى النخاسين عند الموصلى بألف دينار ، وكانت حسناء جميلة ، فلما حصلت عنده حاول منها حاجته ، فامتنعت عليه ، فقال لها : ما تكرهين منى ؟ قالت : أكرهك كما أنت . فقال لها : فما تحبين ؟ قالت : أن تبيعنى ، قال لها : أوخير من ذلك أعتقك وأهب لك ألف دينار ؟ قالت نعم ، فأعتقها وأعطاها ألف دينار بحضرة القاضى ابن الدقاق عند مسجد ابن رغبان فعجب الناس من نفسه وهمته وسماحته ، ومن صبره على كلامها ، وترك مكافأتها على كراهتها ، فلو قتلها ما كان أتى ما ليس من فعله فى مثلها .

قال الوزير : هذا والله طريف ، فما كان آخر أمره . قلت : صار فى جانب أبى أحمد الموسوى وحماه ، ثم سيره إلى الشام فهلك بها " وتتجلى الملامح القصصية فى المشهد السابق فى التركيز على شخصية أسود الزبد ؛ ذلك الرجل الفقير الحقير الوضيع الذى كان ينحايل للحصول على قوت يومه ولا يملك من الملابس إلا خرقة يتوارى بها ؛ وعندما هجم الروم انتهز الفرصة فشحذ سيفاً ونهب وسرق فتبدل حاله وعظمت مكانته إذ رأس الناس ، وصار جانبه لا يرام ، وحماه لا يضام واكتسب القيادة

والزعامة بأن وزع الأموال والعطايا فاشترى حب الجماهير وطاعتهم بعد أن كان كمّاً مهملاً لا أحد يقيم له وزناً وليس له أدنى اعتبار، ثم يصرح أبو حيان في قصة ذلك الرجل عظة لمن يتعظ وعبرة لمن يعتبر فالأيام قد ترفع من شأن الحقير إذا ساعده الحظ وهذا يبرر الياحس الذي كان مسكن في خاطر أبي حيان ويطفو على السطح من حين إلى حين ويربط هذه اللوحة في نفس الوقت بسابقتها وفي هذا سخرية لاذعة من أصحاب السلطة فقد ينال القيادة والرئاسة أراذل الناس الذين لا يستحقون تلك المناصب وليسوا أهلاً لها؛ ولا لتحمل تبعاتها ومن ناحية أخرى يؤكد لأصحاب الجاه والسلطان أن الأيام دول فلا تغتروا بالمناصب فهي ليست دائمة ولقد قالها صريحة إن الله إذا أراد أن يعظم حقيراً قدر وإذا شاء أن يصغر عظيماً قدر فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه. إنها دروس في السياسة ونصائح للساسة يقدمها أبو حيان على مائدة الإمتاع والمؤانسة بذكاء ودهاء. ويواصل أبو حيان قصة أسود الزبد بنفس المشهد السابق ويواصل رسم ملامح شخصيته التي لم تتغير من داخلها برغم ما حدث خارجها من تغيير فقد ظهرت آثار الرفاهية على وجهه ولكنها مجرد قشرة خارجية فقط فالشر والحقارة والسوء يسكن أعماقها. وهنا نتساءل كيف نفسر قصة أسود الزبد وتصرفه مع الجارية في المشهد السابق؟ والإجابة واضحة فأسود الزبد لم يسلك هذا السلوك الإنساني مع الجارية إلا ليكتسب المزيد من الشعبية وحب الجماهير؛ ويعرض هذا المشهد ينقد أبو حيان السلاطين نقداً لاذعاً الذين انشغلوا بالقصف والعزف والطرد وتركوا البلاد فريسة لغارات الروم؛ وثورات العامة الذين عاثوا في الأرض مفسدين فسرقوا ونهبوا وسلبوا؛ ولا أرى في هذا المشهد كما يرى دكتور محمد رجب النجار أن أبا حيان يمتدح فيه أبطال الثورات الشعبية من الشطار والعيارين الذين يرتقي بهم إلى درجة البطولة الشعبية[٣٦] والدليل على ذلك رسمه لشخصية أسود الزبد تلك البشاعة والحقارة والذي كان أهم ملمح من الملامح القصصية في المشهد السابق بحادث السرد والحوار الذي دار بينه وبين الجارية ثم الحامة التي ذكر فيها أبو حيان نهاية ذلك الرجل

أما المشهد الرابع والأخير في تلك اللوحة فهو ما نستطيع أن نطلق عليه مصطلح السيرة الذاتية ، فقد بدأ أبو حيان بسؤال الوزير قائلا (وحدث سلفنا في شدة الحالات ... ومتى ... حتى النهاية إلى بين السورين وشنوا الغارة واكتسحوا ما وجدوا في مدري من ذهب وثياب وأثاث ، وما كنت ذخرته من تراث العمر ؛ وحموا السكاكين على الجارية في الدار يطالبونها بالمال ، فانشقت مرارتها ، ودفنت في يومها وأمسيت وما أملك مع الشيطان نقرة ، ولا مع الفرس نقرة) فالراوي والبطل ... شخص واحد هو أبو حيان ولعلنا نتساءل من أين أتى لأبي حيان الذهب والأثاث وقد عُرف بفقره وكثرة شكواه ؟؟ ! ولكن ليس هذا ما يعنينا فلعله يذكر ذلك أمام الوزير ليتعاطف معه ويجزل له العطاء ، ولكن ما يهمنا هو أن ذلك المشهد يصور لنا ظاهرة اجتماعية خطيرة ؛ فقد انطلقت طبقات الفقراء ؛ واقتسمت شؤون البلاد ؛ وتزعم العيارون فيها أمور الناس

الخاتمة :-

لقد كان أبو حيان في كتابه الإمتاع والمؤانسة من الكتاب العرب الذين لهم فضل السبق في وضع اللبنات الأولى لفن القصة التي اكتملت عناصرها الفنية فيما بعد . فقد توافرت بعض من الملامح القصصية فيما عرضنا له من لقطات ولوحات كالسرد والحوار وتصوير الشخصيات وغير ذلك

ولإعجاب الوزير بأسلوبه الممتع في القص اقترح عليه أن يمارس تلك الحرفة قائلا (قال الوزير هذا فن حسن ، وأظنك لو تصديت للقصص والكلام على الجميع ، لكان لك حظ وافر من السامعين العاملين والخاضعين والمحافظين)(٣٧) وهذه شهادة مهمة أمدت بأهدابها أبو حيان ودونها باعتزاز ، ولكنه يحرص في الوقت ذاته على تحريرها وتحديد المستوى الأدبي الذي يطمح أن تدرج فيه حكاياته (٣٨) ، ومن ثم فهو لا يحرص أن يكون قصاصا للعامة فيرد على الوزير رافضا اقتراحه قائلا :(إن التصدي للعامة خلوقة وطلب الرفعة بينهم ضعة والتشبه بهم نقيصة ، وما تعرض لهم أحد إلا

أعطاهم من نفسه وعلمه وعقله ولوثته ونفاقه وريائه أكثر مما يأخذ منهم من إجلالهم وقبولهم وعطائهم وبذلهم)[٢٩] . فالتوحيدى كان يعرف قدر نفسه وفنه وإبداعه الذى لا يبذل إلا للخاصة من المثقفين .

الهوامش

١- ابو حيان التوحيدى الامتاع والمؤانسة تحقيق أحمد امين و أحمد الزين ط المكتبة العصرية بيروت ص د-ص

٢- المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٢٦

٣- المصدر نفسه ، جـ٣، ص ١٨٩

٤- المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

٥- المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ١٩٠ .

٦- إحسان عباس ، أبو حيان التوحيدى ، ط دار بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ٢٤-٢٥ .

٧- أبو حيان التوحيدى ، الإمتاع والمؤانسة ، جـ٣ ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .

٨- المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ١٩٠ .

٩- زكريا إبراهيم ، أبو حيان التوحيدى أديب الفلاسفة و فيلسوف الأدباء ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤م ، ص ٢٢٦ .

١٠- أبو حيان التوحيدى ، الإمتاع والمؤانسة ، جـ٣ ، ص ٢-٣ .

١١- محسن جاسم الموسوى ، سردية التوحيدى ،مجلة المنقد الأدبى - فصول - المجلد الرابع عشر ، العدد الثالث - خريف ١٩٩٥ ، ص ١٧١ .

١٢- أبو حيان التوحيدى ، الإمتاع و المؤانسة ، جـ٣ ، ص ٢-٣ .

١٣- أحمد بن محمد المقرى الفيومى ، المصباح المنير ، ط دار القلم ، بيروت ، لبنان ، جـ١ ، ص ١٤٩ .

١٤- أبو حيان التوحيدى ، الإمتاع والمؤانسة ، جـ٣ ، ص ٤٠ .

١٥- المصدر نفسه ، جـ٣ ص ٣٨

١٦- المصدر نفسه ، جـ٢ ص ١٦٨-١٦٩

١٧- المصدر نفسه جـ٢ ص ١٧٤-١٧٥

١٨- المصدر نفسه جـ٢ ص ١٦٦

١٩- المصدر نفسه . جـ٢ . ص ١٧٨-١٨٠

٢٠- المصدر نفسه . جـ١ . ص ٥٨-٦٠

٢١- المصدر نفسه . جـ٣ . ص ٨-٩

٢٢- زكريا إبراهيم . أبو حيان التوحيدى أديب الفلاسفة و فيلسوف الأدباء . ص ١٦-١٧ .

٢٣- ياقوت الحموى . معجم الأدباء . ط البابى الحلبى . جـ٢ . ص١٦٣ .

٢٤- أبو حيان التوحيدى . الإمتاع و المؤانسة . جـ٢ . ص ١٥٣-١٥٤ .

٢٥- المصدر نفسه . جـ٢ . ص ١٥٥-١٥٧ .

٢٦- المصدر نفسه . جـ٢ . ص ١٥٧-١٦٠ .

٢٧- المصدر نفسه . جـ٣ . ص ٨٨-٩١ .

٢٨- حسن إبراهيم حسن . تاريخ الإسلام السياسى و الدينى و الثقافى و الاجتماعى . ط دار النهضة المصرية . ١٩٦٥ . جـ٣ . ص ١٨ .

٢٩- أبو حيان التوحيدى . الإمتاع و المؤانسة . جـ٣ . ص ٩١-٩٦ .

٣٠- المصدر نفسه . جـ٣ . ص ٩٧ .

٣١- المصدر نفسه . جـ٣ . ص ١٤٧-١٥٠ .

٣٢- المصدر نفسه . جـ٣ . ص ١٤٧ .

٣٣- المصدر نفسه . جـ٣ . ص ١٥٠ .

٣٤- المصدر نفسه . جـ٣ . ص ١٥٠-١٦٢ .

٣٥- حسن إبراهيم حسن . تاريخ الإسلام السياسى و الدينى و الثقافى و الاجتماعى . جـ٣ . ص ٤٨

٣٦- محمد رجب النجار . قراءة فولكلورية فى أدب التوحيدى . مجلة النقد الأدبى - فصول- المجلد الرابع عشر . العدد الرابع . شتاء ١٩٩٦ . ص ٢٥٨

٣٧- أبو حيان التوحيدى . الإمتاع و المؤانسة . جـ١ ص ٢٢٥

٣٨- أحمد درويش . سرد الحاكى والمحكى - دراسة فى بنية الإمتاع والمؤانسة . مجلة النقد الأدبى - فصول - . المجلد الرابع عشر . العدد الرابع . شتاء ١٩٩٦ . ص ٧٢

٣٩- أبو حيان التوحيدى . الإمتاع والمؤانسة . جـ١ . ص ٢٢٥